مجلة دراسات دوليّة

اسم المقال: ترجمة (أزمة أوروبا كيف تحقق الاتحاد ولماذا ينهار) تيموثي غارتون أش
اسم الكاتب: سميرة ابراهيم عبد الرحمن
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/7024
تاريخ الاسترداد: 2026/11/02 23:54 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة دراسات دوليّة جامعة بغداد ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

أزمة أوروبا كيف تحقق الاتحاد ولماذا ينهار*

تيموثي غارتون أش**

ترجمة: سميرة ابراهيم عبد الرحمن

العاشر من آيار / مايو١٩٤٣: القوات الألمانية تحطم وارسو غيتو [١]. ولأنها تواجه مقاومة مسلحة من قبل المقاتلين اليهود البولنديين، فانها تطلق النار من بيتٍ الى بيت، وتحرق القاطنين احياءً، وتقود الآخرين بعيداً عن قبائهم . ويشير تقرير رسمي وضعه الجنرال جورجن ستروب [٢] بقوله "اليوم، أُلقي القبض على ١,١٨٣ يهودي أحياء." "وأطلقت النار على ١٨٧ يهودياً وقاطع طريق. وتم سحق عدد،

---

* Foreign Affairs; September/October 2012.\

** أستاذ الدراسات الأوروبية في جامعة أكسفورد، وزميل أقدم في مؤسسة هوفر في جامعة ستانفورد.
– كاتب سياسي بريطاني، وأستاذ الدراسات الأوروبية بكلية سانت انتوني بجامعة أكسفورد وهو زميل بمعهد هوفر للبحوث التابع لجامعة ستانفورد وعضو مؤسس في المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية . يكتب لصحيفة "الجارديان" البريطانية و "النيويورك ريفيو " أوف بوكس وصحيفة "لوس انجليس تايمز " ، يمتلك خبرة واسعة بعمليات الإنتقال والتحول الديمقراطي، إذ راقب ورصد عملية التحول بدول أوروبا الشرقية في أوائل تسعينيات القرن الماضي بعد تحررها من نير الاستبداد السوفيتي، وهو أحد أبرز المهتمين بقضية حرية الرأي والتعبير . له تسعة مؤلفات سياسية فيما يسمى بـ"تاريخ الحاضر"، وتتعلق تلك المؤلفات بالتحولات التي شهدتها أوروبا على مدار الثلاثين عاماً الأخيرة . (المترجمة)

[١] الغيتو عموماً هو منطقة سكنية كبيرة بناها النازيون وتم إجبار اليهود على العيش فيها ، وغيتو وارسو هو أكبر غيتو تم إنشاؤه في أوروبا. وقد أنشئ بأمر الحاكم العام الألماني هانز فرانك في ١٦ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٤٠، عندما كانت بولندة ترزح تحت الاحتلال النازي . حيث أمر هانز اليهود في وارسو وضواحيها بالتجمع فيه . وأغلق النازيون غيتو وارسو وعزلوه عن العالم الخارجي في ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٠ وذلك عن طريق بناء جدار حوله معزز بالأسلاك الشائكة في قمته، ونشر الحراس المسلحين من حوله . وفي ١٩ تموز/يوليو ١٩٤٢ أصدر هينريك هيملر أمراً بنقل اليهود من هذه المناطق إلى معسكرات القتل. في ١٨ كانون الثاني/يناير ١٩٤٣، بدأ اليهود في غيتو وارسو بقتال النازيين. انتهى القتال فيه من جهة اليهود في ٢٣ نيسان/ابريل ١٩٤٣ ، حيث اقتحمت قوات نازية مكونة من عدة آلاف الحي اليهودي، بينما انتهت مهمة النازيين رسمياً في منتصف أيار/مايس ١٩٤٣. (المترجمة)

[٢] الجنرال جورجن ستروب هو رئيس القوات الخاصة وقائد القوات الألمانية التي قمعت ثورة حي اليهود في غيتو وارسو، قام بتجميع ألبوم من الصور الفوتوغرافية والمواد الأخرى. وقد تم تقديم هذا الألبوم والذي عرف لاحقاً باسم "تقرير ستروب" كدليل في المحكمة العسكرية الدولية التي انعقدت في نورمبرج. (المترجمة)

متعذر الجزم به، من اليهود وقطاع الطرق في مستودعات تفجرت . عليه، فان العدد الكلي لليهود يستمر في الارتفاع ليصل الى ٥٢,٦٨٣."

ويضم ملحق لهذا التقرير [١] (الوثيقة) صورة فوتوغرافية مشهورة اليوم لصبي صغير أصابه الرعب وعلى رأسه قلنسوة من القماش بدت كبيرة عليه، يرفع يديه عالياً في حالة استسلام . وختم ماريك ادلمان[٢]، واحدٌ من القادة القلة جداً لانتفاضة غيتو وارسو الذين بقوا على قيد الحياة، سيرة له نُشرت بعد الحرب مباشرة بهذه الكلمات : "أولئك الذين قُتلوا في المعركة قاموا بواجبهم حتى النهاية، الى آخر قطرة دم أُريقت على الطرقات....ونحن ما لقينا حتفنا إلاّ لإبقاء ذكراهم حاضرة . الى الأبد."

وتمضي بنا السنون والأيام سريعاً الى ما بعد ستين عاماً، وعلى وجه الدقة، الى العاشر من آيار/مايو٢٠٠٣، قبل شهر من إجراء بولندة استفتاءً حول انضمامها الى الاتحاد الأوروبي . ففي تجمع حاشد لحملة " نعم" في وارسو[٣]، تعلن راية بألوان علم بولندة الأحمر والأبيض "نذهب الى أوروبا تحت العلم البولندي." وخارج القلعة الملكية ا لتي أُعيد بناؤها [٤]، تصدح باغنية حناجر مجموعة من الفتيات يرتدين قمصاناً باللونين الاصفر والازرق محاكاة لنجوم العلم الأوروبي الصفراء وخلفيته الزرقاء. ومع النشيد الوطني للاتحاد الأوروبي المستوحى من الحركة الأخيرة من السمفونية التاسعة لبيتهوفن، تغني الفتيات بال لغة البولندية كلمات قصيدة الشاعر الألماني فريدريش شيلر "الى السعادة ."[٥] وعاجلاً سيستطيع هولاء

---

[١] يقصد الكاتب تقرير جورجن ستروب آنف الذكر. (المترجمة)

[٢] ماريك ادلمان، أحد قادة انتفاضة غيتو وارسو اليهودي، الذي شارك في انتفاضة وارسو ضد النازيين في ١٩٤٣، والاختصاصي في امراض القلب، والناشط في المعارضة الديموقراطية حين كانت بولندا شيوعية، توفي في ٢ تشرين الأول/اكتوبر ٢٠٠٩ في وارسو عن سن تناهز ٩٠ عاماً. (المترجمة)

[٣] وارسو– العاصمة البولندية – واحدة من أكبر ١٠ مدن في أوروبا من حيث عدد السكان، حيث يبلغ عدد سكانها ٢.٦ مليون نسمة، وتبلغ مساحتها حوالي ٥١٦.٩ كيلومتر مربع، وتقع على ضفاف نهر "فيستولا" على بعد حوالي ٣٠٠ كيلومتر من "جبال الكاربات"، ويبلغ متوسط ارتفاع المدينة ١٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، وتُغطي المساحات الخضراء حوالي ٤٠ في المائة من سطح المدينة.
رغم تعرضها للدمار الشديد أثناء الحرب العا لمية الثانية، وزوال أكثر من ٨٥ في المائة من مبانيها، إلا أنها تعافت بشكل مذهل من تلك الأضرار الجسيمة التي لحقت بها، وباتت واحدة من المدن الحديثة التي تحظى بأهمية وإثارة على الصعيدين الثقافي والتاريخي على حدٍ سواء. (المترجمة ، نقلاً عن مجموعة مواقع على الانترنت)

[٤] إحدى القلاع التاريخية بوارسو، بولندة (بنيت في العام ١٥٩٦م)، تطل مباشرة على نهر فيستولا، وتمثل الوحدة البولندية ورمزاً للماضي المجيد وقوة الدولة، وشأنها شأن الكثير من المباني البولندية دُمرت وطُمست معالمها من قبل الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وأعيد بناؤها بالشكل القديم نفسه بين عامي ١٩٧١– ١٩٨٤م (أو ١٩٨٨)، ومن ذلك الحين وهي مزارٌ رائعٌ لجميع السائحين، إذ تعد فرصة رائعة للتعرف على الحياة الملكية بشكلها القديم. (المترجمة، نقلاً عن مجموعة مواقع على الانترنت)

[٥] الى السعادة (نشيد للفرح) قصيدة كتبها الشاعر والمسرحي الألماني فريدريش فون شيلر في العام ١٨٨٥، لحنها المؤلف الموسيقى الشهير بيتهوفن في المقطع الرابع والأخير من سيمفونيته التاسعة. وتعد هذه القصيدة من أروع ما كتب فريدريش فون شيلر في عالم الأدب،

الشباب البولنديون الانتقال متى ما رغبوا عبر معظم قارة أوروبا بحرية كاملة للدراسة، والعمل، والاستقرار، والزواج، والتمتع بثمار دولة رفاهية أوروبية كريمة في دبلن أو مدريد أو روما.

كونو متعانقين، (يا) ملايين !

هذه القبلة للعالم كله !

(يا) إخوة، فوق ظُلة النجوم

يجب أن يسكن أب طيب

وبغية فهم وإدراك كيف ان أزمة اتحاد النقد الأوروبي، والتي سبق وان تم التنبؤ بها، تصبح أزمة أساسية لمشروع الوحدة الأوروبية ما بعد العام ١٩٤٥ كُلّه، فانه سيتحتم رؤية المسار الفريد لأوروبا بين التاريخين (من العاشر من آيار /مايو١٩٤٣ الى العاشر من آيار /مايو ٢٠٠٣). فذكريات كل من الحرب العالمية الثانية، ومقتضيات الحرب الباردة، قادت الاجيال الثلاثة من الأوروبيين الى قمم الوحدة السلمية غير المسبوقة في التاريخ الأوروبي ولا نظير لها في أية قارة اخرى . مع ذلك ما فتأ يسير ذلك المشروع سيراً خاطئاً بعد سقوط جدار برلين، حينما اتخذ القادة الأوروبيون الغربيون، على عجالة من امرهم، سبيلاً لاتحاد نقدي متخلخل بنيوياً.

وفي الوقت الذي راكمت فيه الكثير من الحكومات والشركات والأسر مستويات من الدين لا قِبل لهم على تحملها، سلم جدلاً الأوروبيون الشباب من البرتغال الى استونيا، ومن فنلندا الى اليونان بتحقيق السلام والحرية والرفاهية والضمان الاجتماعي . وحينما انفجرت الفقاعة، فانها خلفت عند الكثيرين شعوراً بخيبة أمل مريرة، وأفضت الى اختلافات وتفاوتات شديدة بين تجارب البلدان المختلفة . الآن، ومع استمرار بقاء الأزمة الحالية دونما حل، فان أوروبا تفتقر الى معظم القوى المحركة التي دفعتها يوماً ما نحو الوحدة. وحتى لو ان خوفاً مشتركاً من تداعيات انهيار منطقة اليورو لعله ينقذها من حصول الأسوء، فان أوروبا تحتاج الى شيء ما أكثر من هذا الخوف لجعلها مرة اخرى مشروعاً جذاباً سبق ان كانت عليه في بحر نصف قرن من الزمان. ولكن ما هو هذا الشيء ؟

حرب في المخيلة

حدد المؤرخون عوامل عدة ساهمت في عملية الوحدة الأوروبية، منها المصالح الاقتصادية الحيوية للدول الأوروبية. مع ذلك، فان القوة المحركة الأهم الوحيدة عبر القارة كانت ذكرى الحرب . فمن

ومن أروع ما لحن بيتهوفن في عالم الموسيقى. تمثل بتقيلة حب ودعوة إلى السلام والمحبة بين كل البشر . وتعد الآن النشيد القومي الرسمي للاتحاد الأوروبي. (المترجمة نقلاً عن الموسوعة الحرة، ويكيبيديا بتصرف)

بين اولئك الذين استعرضوا في شوارع وارسو في آيار/مايو ٢٠٠٣، كان البروفيسور ذو اللحية برونيسلاف جريميك[١] الذي شاهد، حينما كان طفلاً يهودياً بولندياً ذا عشرة اعوام، الغيتو وا رسو وهو يحترق امام ناظريه. ولم تكن مصادفة ان يصبح واحداً من المؤيدين الأكثر تحمساً لإنضمام بولندة للوحدة الأوروبية بوصفه قائد حركة التضامن، ووزير الخارجية البولندي ومن ثَّم عضو البرلمان الأوروبي.

ومما لا ريب فيه، ان الناجي من غيتو وارسو، والجندي النازي، و الضابط البريطاني، والمتعاون الفرنسي مع المحتل، ورجل الاعمال السويدي، والفلاح السلوفاكي، على اختلاف مشاربهم، كانت لهم حروبهم المختلفة تماماً. مع ذلك، صدحت حناجرهم الصرخة المؤثرة عينها : " لن تتكرر مرة اخرى أبداً!" ولجميع الاختلافات في التجارب القومية وشبه ال قومية عبر قارة متنوعة تنوعاً هائلاً، ظل المؤرخ توني جودت[٢] (Tony Judt) يسمي تاريخ أوروبا الذي يشمل ستين عاماً، الى العام ٢٠٠٥ بمفردة واحدة الاّ وهي : مابعد الحرب (postwar). في هذا الخصوص، وليس في جانب آخر، فان العبارة الآسرة المفضلة عند الاتحاد الأوروبي وهي "الوحدة في التنوع"، كانت صحيحة صحة دقيقة.

أدت تلك الذكريات دوراً مهماً لاولئك المحافظين البريطانيين ومعظمهم من المحاربين في الحرب العالمية الثانية، فجعلتهم يأخذون المملكة المتحدة الى الجماعة الاقتصادية الأوروبية (European Economic Community)، سلف الاتحاد الأوروبي، في العام ١٩٧٣. قبل كل شيء، فان التجربة الشخصية قد حفزت اولئك في القارة الأوروبية على مستوى الرئيس الفرنسي فرانسوا متيران[٣]

---

[١] وزير خارجية بولندي سابق وعضو في البرلمان الأوروبي. ولد في ٦ آذار/مارس ١٩٣٢ في وارسو، وتوفي في ١٣تموز/يوليو ٢٠٠٨ في لوبينه، بولندة. له مؤلفات عدة. (المترجمة)

[٢] توني روبرت جودت (٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨ – ٩ آب/أغسطس ٢٠١٠) مؤرخ وكاتب وأستاذ جامعي بريطاني تخصص في التاريخ الأوروبي، وكان أستاذ الدراسات الأوروبية في جامعة نيويورك ومدير معهد اريش ماريا ريمارك. اشتهر جودت بكتاباته حول الأحداث السياسية والتي كان ينشرها في بعض الصحف العالمية كـ " التايمز " و"نيو ريبابليك ". وضمن اهتمامه بالتطورات الحاصلة في القارة العجوز خاصة الحربين العالمتين الأولى والثانية، ألف كتاباً حمل عنوان "ما بعد الحرب .. تاريخ أوروبا منذ ١٩٤٥ حتى الوقت الحاضر " نشر في العام ٢٠٠٥ وحظي بمدح الأوساط العلمية والثقافية في العالم . كما أثارت بعض كتاباته جدلاً كبيراً خاصة في الأوساط اليهودية بفعل انتقاده السياسة الأميركية، وإسرائيل. حصل جودت على تكريم خاص من جائزة جورج أورويل للكتابات السياسية عام ٢٠٠٩عن إنجازه مدى الحياة وكتاباته في السياسة البريطانية، وله ثمانية كتب أبرزها كتاب "ما بعد الحرب: تاريخ أوروبا منذ ١٩٤٥." وله مجموعة مقالات صدرت بعنوان "إعادة تقويم : تأملات في القرن العشرين المنسي "، نشرت قبل وفاته بعامين، يسعى فيها المؤرخ ذو الخلفية اليهودية إلى استعادة مراحل وشخصيات مهمة من القرن العشرين الذي يبدو، حسب المؤرخ، وكأنه ينتمي إلى عصر سحيق لشدة تباعده عن الذاكرة الحالية . وفي سياق ذلك الاستذكار الجاد والعميق يحلل جودت مسائل كبرى مثل مهمة الدولة وتأثير الماركسية وسيطرة اقتصاد السوق ودور المثقف متوقفاً عند عدد من أبرز الشخصيات التي ملأت فضاء القرن العشرين بنتاجها وجهودها. (المترجمة)

[٣] اشترك فرانسوا ميتران في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ . ١٩٤٥)، فجُرح وأُسر من قبل الألمان، عام ١٩٤٠، وحاول الفرار من أسره ولم يوفق . وتمكن من الفرار في المحاولة الثانية، عام ١٩٤١. التحق بأحد مراكز أسرى الحرب في فيشي، بين حزيران /يونيو ١٩٤٢،

والمستشار الالماني هلموت كول اللذين أوجدا الاتحاد الأوروبي اليوم . ففي حوار كان لي * معه بعد إعادة توحيد شطري المانيا، بعث كو ل برسالة قصيرة سوف لن أنساها ابداً . إذ تساءل "هل تدرك انك تجلس الآن قبالة خليفة ادولف هتلر المباشر؟ " وبوصفه أول مستشار لالمانيا موحدة منذ هتلر، شرح انه كان مدركاً بعمق إزاء واجبه التاريخي للقيام باشياء على نحو مختلف.

لقد وصفت الوحدة الأوروبية كمشروعٍ للنخ بة، إلاّ ان شعوب أوروبا، هي الآخرى، قد اشتركت في هذه الذكريات . وحينما تعثر المشروع، مثلما حصل في مرات عدة، كان رد فعل النخبة البحث عن سبيل ما للمضي قدماً مهما كان هذا السبيلُ معقداً . وحتى تسعينيات القرن الماضي، حينما كان تقليد إجراء الإستفتاءات الوطنية حول المعاهدات الأوروبية قد بدأ بالانتشار، فانه نادراً ما يُسأل الأوروبيون مباشرة حول اذا ما كانوا متفقين مع الحلول التي تم التوصل اليها، على الرغم من انهم يستطيعون التصويت دورياً داخل أو خارج المكتب الذي يكون فيه السياسيون مسؤولين عن إيجاد تلك الحلول. مع ذلك، من المناسب القول انه في بحر اربعين عاماً تقريباً، اعتمد مشروع توحيد أوروبا، على الأقل، على إجماع سلبي بين معظم الجماهير القومية في أوروبا.

ان هذه الأربعين عاماً هي سنوات الحرب الباردة؛ الصراع الآخر الذي رسم شكل الاتحاد الأوروبي. ومنذ اربعينيات القرن العشرين الى سبعينياته، فان جدلاً محورياً لتوحيد أوروبا الغربية كان القصد من ورائه مقارعة التهديد السوفيتي، الواضح للجميع في رؤية الجيش الاحمر [1] في المانيا الشرقية وبرلين المقسمة. وفضلاً عن ذكريات بربرية أوروبا المنغرسة أصلاً في ذاتها، كان ثمة، هكذا يُقال، برابر ة على الأبواب.عليه، ينبغي ان يُقلد القادة السوفيت من جوزيف ستالين الى ليونيد بريجنيف ميداليات تُخلد ذكراهم نظير خدماتهم في توحيد أوروبا.

وتذهب منافسة الحرب الباردة شأواً بعيداً في تفسير لماذا قدمت الولايات المتحدة الكثير من الدعم لتوحيد أوروبا، بدءً من خط ة مارشال في أربعينيات القرن العشرين الى دبلوماسية لا فكاك الا بتوحيد شطري المانيا وتفكيك الاتحاد السوفيتي في ١٩٨٩ . ١٩٩١.

وكانون الثاني/يناير ١٩٤٣، قبل أن يشارك بفعالية في المقاومة، وانضم إلى المقاومة الفرنسية، ونظم الحركة الوطنية للأسرى. (المترجمة، نقلاً عن موقع مقاتل من الصحراء؛ السيرة الذاتية للشخصيات على الانترنت)

*** الكلام هنا لصاحب المقال تيموثي غارتون أش. (المترجمة)**

[1] الجيش الأحمر (اختصار جيش العمال والفلاحين الأحمر) هو الجيش الذي كونه البلاشفة بعد ثورة أكتوبر، لمقاومة فرنسا، والمملكة المتحدة، وتشيكوسلوفاكيا، والولايات المتحدة واليابان. عبارة أحمر له١ مغزى ثوري وتشير إلى الدم. (المترجمة)

ولنصف أوروبا الرابضة خلف الستارة الحديدية . ما اسماها الكاتب التشيكي ميلان كونديرا "الغرب المختطف" . فان الرغبة في "العودة الى أوروبا" سارت يداً بيد مع الكفاح من اجل الحرية الوطنية والفردية. وكان للازدهار المتنامي الحاصل في أوروبا تأثير جذاب على أولئك الذين شهدوه سواء بالمعايشة أو على شاشات التلفاز الغربي.

ان المغالطة التاريخية الأكثر ابتدائية هي الاقتراح بان حدثاً نجم عن حدثٍ آخر وقع بعده. مع ذلك فان شيئاً ما حدث، وما كان ليحدث إلاّ في العام ١٩٩٢، كان سبباً مساهماً في الثورات المخملية لعام ١٩٨٩. ان السنة الهدف ١٩٩٢، وهي تحدد الموعد النهائي المُعلن عنه بصوتٍ عالٍ على الملأ الذي أعطته الجماعة الاقتصادية الأوروبية لنفسها لإكمال سوقها الموحدة، نقلت شعوراً ملحاً عن التخلف كثيراً عن الركب الذي لا تعانيه شعوب أوروبا الشرقية فحسب بل وقادة الكتلة الشيوعية ذات الفكر الاصلاحي ومنهم ميخائيل غرباتشوف.

ينقلنا هذا الى المحرك الكبير الأخير للوحدة الأوروبية حتى التسعينيات : ألا وهي المانيا الغربية. إذ اظهرت المانيا الغربية، كل من نخبها والكثير من شعبها التزاماً استثنائياً إزاء الوحدة الأوروبية . وكانوا قد فعلوا هذا لسببين جدُ وجيهين : أولاً: انهم أرادوا ذلك . ثانياً، كان يتحتم عليهم ذلك . فقد ارادوا ان يظهروا ان المانيا قد تعلمت من تاريخها قبل العام ١٩٤٥ المرعب، وأملت في ان تعيد تأهيل نفسها كُلّية في مجتمع قيم أوروبي حتى الى درجة تخليها عن الكثير من سيادتها وهويتها الوطنية . ولانهم كانوا الأوروبيين الأسوء، فان الالمان الآن سيكونون الأفضل . (مثلما سرت في وقت ما مزحة تقول لو ان شخصاً ما قدم نفسه على انه "أوروبي" فأعلم على الفور انه ألماني). كما كانت لهم مصلحة وطنية لا سبيل الى إنكارها في إظهار ان الالتزام الأوروبي، الذي لا يتحقق إلاّ من خلال استعادة الثقة بجيرانهم والشركاء الدوليين (منهم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) يمكن ان يجعلهم يصبون الى هدفهم طويل الامد في إعادة توحيد شطري المانيا . ومثلما علق وزير خارجية المانيا الغربية، هانز. ديتريش غينشر ذات مرة "كلما كانت سياستنا الخارجية أوروبية أكثر كلما كانت وطنية أكثر ." ان أوربة[1] المانيا الغربية لم تكن ببساطة عملية ذرائعّية . بل عكست ارتباطاً أخلاقياً وعاطفياً. بيد انها لم تكن مثالية محضة .

وبعد ان تم إعادة توحيد الدولتين الألمانيتين في العام ١٩٩٠، تساءل الكثير من المراقبين عما اذا كان امراً أساسياً ان تستمر المانيا غربية موسعة بهذا الالتزام الاستثنائي إزاء الوحدة الأوروبية . ومن

[1] **أي إحياء الروح الأوروبية لالمانيا الغربية. (المترجمة)**

المفيد القول انه قبل اندلاع أزمة منطقة اليورو، كان الجواب واضحاً عادةً . وأصبحت المانيا التي إعيد توحيدها ما يطلق عليها بعض المشاركين في نقاش ما بعد الجدار دولة قومية "طبيعية" . "فرنسا ثانية" في العبارة التي أطلقها المعلق دومينيك مويسي [1] (Dominique Moisi). ومثلها مثل فرنسا، تسعى المانيا الجديدة وراء مصالحها القومية عبر أوروبا متى ما كان ذلك ممكناً. ولكنها تنفرد بنفسها حينما ترى ان ذلك ضرورياً. مثلما فعلت، على سبيل المثال، حينما أمنت احتياجاتها للطاقة بشكل ثنائي مع روسيا، على سبيل الذكر اتفاق خط انبوب نورد ستريم [2] (Nord Stream) في عام ٢٠٠٥. وما برح قادتها في برلين وليس في بون يسعون ليكونوا أوروبيين صالحين لكنهم لم يعودوا أسخياء بذات الاستعداد اذا ما طلبت أوروبا.

ولادة اتحاد مشوه

ان الأصول الحالية للاتحاد النقدي المشوه والذي هو في مركز الأزمة الأوروبية اليوم، تقع أيضاً في اللحظة العاصفة لتوحيد شطري المانيا وما أعقبها. فبعد انهيار جدار برلين في التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩، دفع متيران بقوة خائفاً من توقع توحيد المانيا، لإلزام هولمت كول بجدول زمني لما سُمي فيما بعد الاتحاد الاقتصادي والنقدي . إذ جرى تطوير ذلك المقترح ليساعد الجماعة الاقتصادية الأوروبية على إكمال سوقها المشتركة ومعالجة إدارة نسب التبادل داخلها . وكان الغرض العام لميتران هو إلزام المانيا موحدة، اذا ما كان يجب ان تتوحد تلك الالمانيتين حقاً، في أوروبا موحدة أكثر، اما غرضه الخاص فكان تمكين فرنسا من إستعادة سيطرة أكبر على عملت ها وتفوز بشيء من النفوذ على عملة المانيا.

وفي حوارٍ مهمٍ مع غينشر، وزير خارجية المانيا الغربية، في الثلاثين من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٩، ذهب ميتران بعيداً بقوله انه ما لم تُلزِم المانيا نفسها باتحاد مالي أوروبي "فاننا سنعود الى عالم عام ١٩١٣." في تلك الأثناء، كان ميتران يحث رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر أن تُدق ناقوس الخطر كما لو كان العام ١٩٣٨. وعلى وفق السجل البريطاني للقاءاتهم الخاصة في قمة ستراسبورغ للقادة الأوروبيين في كانون الأول /ديسمبر١٩٨٩، قال ميتران "انه خائف من ان يجد نفسه ورئيسة الوزرا ء في

[1] دومينيك مويسي أستاذ زائر بجامعة هارفارد ومؤلف كتاب "الجغرافية السياسية للعاطفة". (المترجمة)
[2] يربط خط نورد ستريم (السيل الشمالي) بين مدينتي فيبورغ الروسية وغرايسفيلد الألمانية. (المترجمة)

وضع اسلافهم في ثلاثينيات القرن العشرين الذين أخفقوا في التصرف بوجه الضغط المستمر الى الامام من قِبل الالمان."[1]

ويخلص ديفيد مارش[2](David Marsh)، المؤرخ الإخباري الأفضل لتاريخ اليورو الى ان "الاتفاق الأساسي" للمضي قدماً بالاتحاد النقدي كان قد تم في سترا سبورغ. ولحِقت ذلك مفاوضات صعبة. وبعد عامين تماماً تم الاتفاق في مدينة ماستريخت الهولندية الصغيرة على وضع الشروط الأساسية لما أصبح اليوم منطقة اليورو[3]. ومن البسيط جداً تمييز ذلك بوصفه مقايضة مباشرة "كل الارض الألمانية لكول، ونصف المارك الالماني لميتران، " مثلما راحت سخرية تهزأ في ذلك الوقت . الا ان حاجة المانيا لحلفائها الأوروبيين الأقرب. قبل كل شيء فرنسا. لدعم إعادة توحيدها القومي كان له تأثير حاسم والقول الفصل في كل من الجدول الزمني وتصميم الاتحاد النقدي لأوروبا.

لا جرم في القول ان كول كان أوروبياً ملتزم اً بعمق. لم يلو جهداً قط في تكرار ان المانيا والوحدة الأوروبية "هما وجهان لعملة واحدة ". وهكذا، أخبر وزير خارجية الولايات المتحدة جيمس بيكر، بعد ثلاثة ايام من إنعقاد قمة ستراسبورغ، بانه قد وافق حتى على اتحاد نقدي أوروبي . فما هو الدليل الأقوى الذي يمكن ان يق دمه من اوراق اعتماد أوروبية المانيا . وتسجل المحاضر الرسمية الألمانية لوقائع اللقاء ما قاله كول لبيكر "بان كول اتخذ هذا القرار بالضد من المصالح الألمانية ." "فعلى سبيل المثال كان رئيس البنك المركزي الالماني (البوندسبانك) ضد التطور الحالي، إلاّ ان الخطوة كانت مهمة سياسياً، ما دامت تحتاج المانيا أصدقاءً." وهذا الفعل فعل امرئ يسعى الى توحيد المانيا دون دم وحديد.

ان تصميم اتحاد النقد المنبثق يمكن فهمه أيضاً، مثل الكثير الآخر في تاريخ الوحدة الأوروبية، كتسويةٍ فرنسية. المانية . وتحت الإصرار الالماني، لا سيما البو ندسبانك، فان البنك المركزي الأوروبي[4] قد يكون وثيقة البوندسبانك الواسعة،[1] والمستقلة بقوة عن الحكومات[2] (على العكس في التقليد

---

[1] في عام ١٩٨٩ كانت رئيسة الوزراء البريطانية، مارجريت تاتشر، والرئيس الفرنسي، فرانسوا ميتران، يفترضان بطبيعة الحال أن ألمانيا الموحدة ستبدأ بغزو بولندا ثانية. (المترجمة)

[2] مصرفي بريطاني ومستشار مالي، رئيس مجلس الإدارة المشارك ل منتدى المؤسسات النقدية والمالية الرسمي ورئيس مجلس إدارة شركة سوزرن كوبر كوربوريشن الدولية وشركة ستيرن ستيوارت وشركاه ومؤلف كتاب "اليورو: سياسة العملة العالمية الجديدة". (المترجمة)

[3] منطقة اليورو (يوروزون) هي اتحاد اقتصادي ومالي للدول أعضاء الاتحاد الأوروپي السبعة عشر المنضمة إلى العملة الموحدة ... اليورو. (المترجمة)

[4] تأسّس البنك المركزيّ الأوروبي في حزيران/يونيو العام ١٩٩٨ وضمن اولوياته "الحفاظ على استقرار الأسعار ". وهكذا، يكون على البنك المركزيّ الأوروبي دعم السياسات الاقتصادية العامّة في الاتحاد الأوروبي وفقاً لمبدأ اقتصاد السوق حيث المنافسة الحرّة ". ويتحقّق استقرار

الفرنسي) والمكرس مع الحماسة البروتستانتية لجهة حقيقية واحدة لاستقرار الاسعار (خشية عودة كابوس فايمار[٣] في التضخم المفرط). ولمصلحته، اراد كول ان يكون الاتحاد الأوروبي مكملاً باتحادٍ مالي وسياسي . وهكذا تكون ثمة سيطرة على الإنفاق العام وتنسيق السياسة الاقصادية بين الدول، ومزيد من الشرعية السياسية للمشروع كله . وقال للبوندسبانك في تشرين الثاني /نوفمبر١٩٩١ "ان الاتحاد السياسي هو المتمم الأساسي للأتحاد النقدي والاقتصادي." وأضاف "يخبرنا التاريخ الحديث، ليس في المانيا فحسب، انه من المناف للعقل التوقع، انه في الأمد البعيد، يمكن الإبقاء على اتحاد اقتصادي ونقدي دون قيام اتحاد سياسي."

بيد ان فرنسا لم تكن تملك أياً من ذلك . الموضوع بالنسبة لها هو الحصول على بعض السيطرة على عملة المانيا لا ان تحصل المانيا على سيطرة على ميزانية فرنسا . وهكذا، فان النقاش عن أي اتحاد مالي ذوى وذبل الى هيئة "معيار التقارب"[٤] التي تتطلب ان يُبقي أعضاء الاتحاد النقدي المفترضين

الأسعار، على المدى الطويل، حينما لا يتجاوز مؤشّر الأسعار على أساس الاستهلاك – أي التضخّم – الـ٢ في المئة . وهذا دور مختلف تماماً عن دور الاحتياطي الفيدرالي (البنك المركزي الأميركي)، المكلّف رسمياً أيضاً بزيادة فرص العمل إلى أقصى حد.

كما أنّ البنك المركزي الأوروبي مكلّفٌ أيضاً بإصدار النقد. فهو يصكّ النقد الذي يُتداول ضمن الدول السبع عشرة في منطقة اليورو، كما يمنح القروض التي تتغذّى بها المصارف في المنطقة .

من "استقرار الأسعار"، وسّع البنك المركزي مهمّته إلى "الاستقرار المالي". ففي ربيع العام ٢٠١٠، اشترى البنك المركزي الأوروبي سندات الدين العام اليوناني والإيرلندي، قبل أن يقوم بالأمر نفسه في نهاية العام ٢٠١٠ ومطلع العام ٢٠١١ مع الصكوك البرتغالية والاسبانية، ثمّ الإيطالية منها منذ صيف العام ٢٠١١. هذه المشتريات التي تحقّقت في إطار "برنامج أسواق الصكوك **Security Market Program**" وصلت في تشرين الأوّل /أكتوبر (٢٠١١) إلى مبلغ إجمالي قدره ١٦٥ مليار يورو (مقابل ٧٤ ملياراً في الأوّل من آب/أغسطس ٢٠١١). وقد أثارت سخط الزعماء الألمان الذين أبدوا خشيتهم من أن يِ تحوّل البنك المركزي الأوروبي إلى "بنكٍ سيّئ": "مكبٌّ للديون الهالكة". (المترجمة نقلاً عن موقع لوموند دوبلوماتيك، النشرة العربية، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١ ، على الانترنت)

[١] كان البنك المركزي الأوروبي طفل حرب. إذ ورث هوس البنك المركزي الألماني بالتضخم الذي يمكن عزوه إلى التضخم الألماني الكبير في سنوات العشرينيات، الذي ساعد على إيجاد النازية. (المترجمة)

[٢] يُعَد البنك المركزي الأوروبي واحداً من أهم البنوك المركزية في العالم . وهو المسؤول الأول عن السياسة النقدية للإتحاد الأوروبي، ومن أهم مكونات هذه السياسة الحفاظ على قيمة اليورو أمام العملات الأخرى، وبذلك أُطلق على البنك المركزي الأوروبي "بنك البنوك المركزية في الاتحاد الأوروبي "؛ حيث يشرف هذا البنك على أداء البنوك المركزية في الدول الأعضاء، وذلك بوصفه مؤسسة "فوق قومية " – أي مؤسسة (**super national**). (المترجمة نقلاً عن موقع موسوعة المعرفة على الانترنت)

[٣] أصاب جمهورية فايمار في ألمانيا في الحرب العالمية الأولى الشلل جراء أعباء التعويضات التي فرضت عليها من قبل الحلفاء، وبما أن الدولة كانت تعاني من الضعف بحيث لم تتمكن من جباية الضرائب من مواطنين يعانون من الفقر وشح المواد الغذائية، فقد أقدمت على طبع النقود مرة تلو الأخرى. وكانت النتيجة المحتومة بلوغ مرحلة التضخم الجامح . (المترجمة، نقلاً عن الموقع الرسمي لجريدة القبس الكويتية على الانترنت)

[٤] "معايير التقارب": هي المعايير التي حددتها "معاهدة ماستريخت" المعايير التي يجب احترامها من قبل الدول الراغبة في الانتقال إلى منطقة الوحدة النقدية الأوروبية (منطقة اليورو)، والتي أطلق عليها معايير التقارب، وبيانها كالآتي:

الدين العام دون نسبة ٦٠% من اجمالي الناتج القومي والعجز تحت ٣%. وهكذا، في عاصفة واندفاع [١] (Sturm and Drang) التغيير الجيوسياسي الأوسع في أوروبا منذ العام ١٩٤٥، تم تخيل أوروبا على

---

(١) استقرار أسعار الصرف:

(أ) يجب أن تكون تقلبات سعر صرف العملة خلال العامين الماضيين على الانتقال إلى العملة الأوروبية الموحدة – على أقل قدير– في نطاق التقلبات الطبيعية لنظام الصرف الأوروبي ، دون أن تلجأ الدول المعنية إلى خفض قيمة عملتها بمبادرة منها . وتعد آلية سعر الصرف، المحور الأساسي في النظام النقدي الأوروبي. وتم الاتفاق على أن تقوم آلية سعر الصرف على مبدأين أساسيين، وهما كالآتي:

– المبدأ الأول: هامش التغير في سعر صرف:

ألا يزيد هامش التغير في سعر صرف عملة أية دولة عضو في النظام النقدي الأوروبي، مقابل عملات بقية الدول الأعضاء عن (± ٢.٢٥ %)، وهو ما يعرف بالسعر المحوري.

– المبدأ الثاني: تعديل الأسعار المركزية:

ألا يتم تعديل الأسعار المركزية، إلا باتفاق جميع الدول الأعضاء في النظام النقدي الأوروبي، وذلك ضماناً لاستقرار الوحدة النقدية الأوروبية.

(ب) كما تم الاتفاق على ضرورة إيداع كل دولة عضو في النظام النقدي الأوروبي نسبة (٢٠ %) مما لديها من احتياطات (الذهب– الدولار) لدى صندوق التعاون النقدي الأوروبي مقابل "اليورو"، وذلك حتى تستخدم في التدخل في أسواق الصرف الأجنبي، لإجبار السلطات على استخدام " اليورو" بدلاً من الدولار في التدخل في أسواق الصرف العالمية، وحتى يزداد نطاق استخدامه في إجراء التسويات بين البنوك المركزية الأعضاء في الاتحاد الأوروبي.

(٢) استقرار الأسعار:

يجب ألا يتعدى معدل التضخم (١.٥) عن متوسط معدلات التضخم لأقل ثلاث دول أعضاء في الوحدة النقدية الأوروبية تضخماً.

(٣) عجز الموازنة:

يجب ألا يزيد معدل العجز في الموازنة عن نسبة (٣ %)، من الناتج المحلى الإجمالي.

(٤) الدين العام:

يجب ألا يزيد حجم الدين العام عن نسبة (٦٠ %)، من الناتج المحلى الإجمالي .

(٥) أسعار الفائدة الطويلة الأجل:

يجب ألا تتجاوز أسعار الفائد ة نسبة (٢ %) عن متوسط معدل أسعار الفائدة الطويلة الأجل في ثلاث دول أعضاء في الوحدة النقدية الأوروبية، والتي تشهد أقل معدلات التضخم.

وقد استوفت اثنتا عشرة دولة "معايير التقارب"، وأصبحت تكون "الاتحاد النقدي والاقتصادي الأوروبي"، وهى (أسبانيا– أيرلندا– إيطاليا– ألمانيا– النمسا– اليونان– البرتغال– بلجيكا– فرنسا– فنلندا– لكسمبورغ– هولندا). (المترجمة، نقلاً عن موقع مقاتل من الصحراء على الانترنت)

[١] العاصفة و الاندفاع (**Sturm und Drang**) هي حركة أدبية المانية تمتد من عام ١٧٦٧ إلى عام ١٧٨٥. تميزت بالثورة على حركة التنوير الفرنسية والمحاكاة الالمانية لها . وأخذت هذه التسمية من اسم مسرحية لفريدريش ماكسميليان كلنجر . ويتميز عصر العاصفة والاندفاع بتمجيده للعاطفة البشرية الجارفة والقلب المتأجج بالشعور . ولم تولِ أي اهتمام بالعقل الذى كان سائداً في عصر التنوير الذى سبقها. ومن الأعمال الأدبية التى كتبت في ذلك العصر رواية جوته "آلام الشاب فرتر". ومن أهم أدبائها فريدريش فون شيلر . (المترجمة نقلاً عن موقع موسوعة المعرفة على الانترنت وقاموس المورد لمنير البعلبكي)

انها طفلٌ واهنٌ.[1] إذ يعارض معظم الالمان التخلي عن ماركهم الالماني المدخر . ولكنهم لن يُسألوا عن رأيهم: ذلك ان دستور المانيا الغربية لم يتح مجالاً للاستفتاءات . ولم تكن لكول نية في تغير ذلك . وأستذكر الكسندر لامفالوسي[2] (Alexandre Lamfalussy) رئيس معهد النقد الأوروبي[3]، سلف البنك المركزي الأوروبي، فيما بعد قوله لكول "لا أعلم كيف ستجعل الشعب الالماني يتخلى عن المارك الالماني." ورد كول " ان ذلك سيحدث، فالالمان يوافقون قيادة قوية."[4]

في فرنسا، وفي تلك الأثناء، شقت معاهدة ماستريخت[5] طريقها بصعوبة في استفتاء ايلول/سبتمبر١٩٩٢ بالتصويت بنعم لما يربو على ٥٠% فحسب. ان الإجماع السلبي لمزيد من الخطوات

[1] لم تكن العملة متعلقة بالاقتصاد، بل إن اليورو هو طفل حرب. فقد تم إنشاؤه لأن أوروبا كانت تكافح من أجل التعافي من الحرب العالمية الثانية. وكان البنك المركزي الأوروبي طفل حرب أيضاً . فقد ورث هوس البنك المركزي الألماني بالتضخم الذي يمكن عزوه إلى التضخم الألماني الكبير في سنوات العشرينيات، الذي ساعد على إيجاد النازية . والآن انتهى هذا الكفاح ولم تعد الحرب تسيطر على حاضرنا . (المترجمة)

[2] ألكسندر لامفالوسي هو الرئيس الأسبق لبنك التسويات الدولية (**BIZ**) . (المترجمة)

[3] أنشئ المعهد النقدي الأوروبي في فرانكفورت بألمانيا في عام ١٩٩٤، وكان يُعد بمثابة تمهيد لتأسيس النظام الأوروبي للبنوك المركزية وإنشاء البنك المركزي الأوروبي ليشرف على السياسة النقدية للدول الأعضاء في الاتحاد الاوروبي. (المترجمة)

[4] تشكّل ألمانيا اليوم، بقاعدتها الصناعية القويّة وبتفوّق نسبة صادراتها، قوّة اقتصادية لا توازيها أيّ قوّة أخرى في أوروبا . إذ بلغت قيمة ميزانها التجاري للعام ٢٠١١ بحسب مصادر أوروستات (المكتب الأوروبي للإحصاء) نحو ١٢٩.٢ مليار يورو مقابل ٧٢.٥– لفرنسا و٢٤.٩ لمنطقة اليورو ككلّ. فيما بلغت نسبة البطالة للعام نفسه ٥.٥ % من إجمالي السكان الناشطين مقابل ٩.٩ % لفرنسا و١٠.٤% لمنطقة اليورو. وذلك مع توقّعات بتفوّق معدل نموّ إجمالي الناتج المحلّي في٢٠١٢ في ألمانيا (٠.٨%) عمّا سيكون عليه في فرنسا (٠.٦ %) أو في منطقة اليورو (٠.٥ %). (المترجمة نقلاً عن موقع أفق؛ النشرة الالكترونية التي تصدر عن مؤسسة الفكر العربي، على الانترنت)

[5] معاهدة الاتحاد الأوروبي التي تعرف أيضاً باسم اتفاقية أو معاهدة ماستريخت هي الاتفاقية المؤسسة للاتحاد الأوروبي وأهم تغيير في تاريخه منذ تأسيس المجموعة الأوروبية في نهاية الخمسينيات. تم الاتفاق عليها من قبل المجلس الأوروبي في مدينة ماستريخت الهولندية في كانون الأول/ديسيمبر ١٩٩١.

دخلت هذه المعاهدة، التي تم توقيعها في ٧ شباط/فبراير ١٩٩٢ في ماستريخت، حيز التنفيذ في الأول من تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٩٣. يرجع تأخر تطبيقها إلى تأخر قبول الدانماركيين للمعاهدة وشروطها وبسبب قضية دستورية ضدها أقيمت في ألمانيا .

أدخلت معاهدة الاتحاد الأوروبي تغييرات كثيرة على قوانين المجموعة الأوروبية و على قوانين المجموعة الأوروبية الذرية، اللتين كانتا تشكلان نواة الاتحاد الأوروبي. شكلت أيضاً المعاهدة أساس الدستور الأوروبي، الذي تم الاتفاق عليه لاحقاً في عام ٢٠٠٤ .

حسب البند ٤٧ من المعاهدة، فإن هذا الاتحاد لا يبدل المجموعة الأوروبية، و إنما يكملها. إلى جانب عناصر أخرى، تشكل المجموعات الأوروبية الآتية أركان الاتحاد الأوروبي:

- المجموعة الأوروبية
- سياسة الاتحاد الأوروبي الخارجية و الأمنية المشتركة
- التعاون الأمني و القضائي

أن إنشاء اتحاد اقتصادي و نقدي بين الدول الأعضاء كان أهم نقطة ضمن محتوى المعاهدة، التي سيتم التحضير لها في ثلاث مراحل . حسب نص المعاهدة، فإنه يجب أن يدخل الاتحاد النقدي بين الأعضاء حيز التنفيذ في مدة أدناها يكون الأول من كانون الثاني /يناير

نحو الوحدة الأوروبية والمتقدمة على نحو أقرب الى صميم السيادة الوطنية بدأ يُعطّل حتى في الأراضي الأم لمشروع ما بعد الحرب.

أزمة معلنة

مع تغيير طفيف لعنوان رواية[1] غابرييل ماركيز غارسيا[2]، فان تاريخ اتحاد النقد الأوروبي يمكن ان يُطلق عليه "وقائع أزمة معلنة". ففي الوقت الذي كانت تتحضر فيه الدول الأعضاء الأحد عشر المؤسسة لمنطقة اليورو لتقديم عملة موحدة في الأول من كانون الثاني /يناير١٩٩٩، فان جُلّ المشاكل التي علّها تحدق باليورو بعد عقدٍ من الزمان قد تم التنبؤ بها في ذلك الحين.

إذ تساءل النقّاد في ذلك الوقت عن الكيفية التي قد تعمل بها عملة موحدة دونما خزينة مشتركة، وكيف ان مقداراً واحداً يناسب جميع نسب الفائدة يكون ملائماً لمثل هذه المجموعة المتنوعة من الاقتصادات، وكيف ان منطقة اليورو يمكن ان تتغلب على الصدمات الاقتصادية التي تختلف من منطقة الى أخرى. وهو ما يسميه الاقتصاديون "صدامات لا متماثلة". ذلك ان أوروبا لا تمتلك حركة العمالة ولا مستوى التحويلات المالية بين الدول ما ميز الولايات المتحدة.

وأشارت مقالة نُشرت على صفحات مجلة الفورين أفيرز الأميركية في العام ١٩٩٨ الى انه "منذ العام ١٩٨٩ شهدنا كيف كان دافعو الضرائب في المانيا الغربية معارضين على وجوب الدفع حتى

١٩٩٧ و أقصاها يكون الأول من كانون الثاني /يناير ١٩٩٩ و أن تكون العملة الموحدة الجديدة هي اليورو . لكي تصبح أي دولة عضو مؤهلة لدخول هذا الاتحاد النقدي و جعل اليورو عملتها، يجب عليها اجتياز بعض الشروط، التي من خلالها يتم الحفاظ على ثبات و استقرار العملة الجديدة. الشروط تندرج تحت شروط مالية، و شروط أخرى تتعلق بمستوى الأسعار، الفائدة و بسعر الصرف. الشروط المالية تضع نسبة عجز في ميزانية الدولة العضو لا تنقص عن حاجز ال ٣% و نسبة دين عام لا تتعدى ال ٦٠% كأهم الشروط . تم لاحقاً في عام ١٩٩٧ إضافة بنود أخرى .

من خلال التوقيع على المعاهدة، دخلت كل دولة عضو في آلية زمنية، تنتهي بالانضمام للات حاد في حالة اجتياز جميع الشروط، ذلك بعد موافقة المجلس الوزاري للاتحاد بشكل نهائي على انضمام الدولة و مدى تطبيقها و اجتيازها للشروط . (المترجمة نقلاً عن موقع موسوعة المعرفة على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت))

[1] تعد قصة غابرييل غارسيا ماركيز " وقائع موت معلن"، إحدى روائع الأدب العالمي، وقد نشرها الروائي في العام ١٩٨١، أي قبل حصوله على جائزة نوبل للآداب بعام واحد، وفي غمرة النجاح المدهش الذي كانت حققته، على الأقل، روايتان كبيرتان له هما «مائة عام من العزلة » و «خريف البطريرك». ولقد حققت الرواية نجاحاً كبيراً فور نشرها وسرعان ما ترجمت الى الكثير من لغات العالم كما الحال مع كلّ أعمال ماركيز منذ ذلك الحين. ان غابرييل غارسيا ماركيز تمكن في هذه الرواية البسيطة من ان يطرح الكثير من الإشكالات الإجتماعية والفكرية، من دون ان يكتب نصاً معقداً مؤسلباً. (المترجمة)

[2] روائيٍ وصحفي وناشر وناشط سياسي كولومبي ولد في كولومبيا في ٦ اذار/ مارس ١٩٢٧، قضى معظم حياته في المكسيك وأوروبا . ويعد غارسيا ماركيز من أشهر كتاب الواقعية العجائبية، فيما يعد "عمله مائة عام" من العزلة هو الأكثر تمثيلًا لهذا النوع الأدبي. وتميز غارسيا ماركيز بعبقرية أسلوبه ككاتب وبموهبته في تناول الأفكار السياسية. (المترجمة)

ولو كان لمواطنيهم في شرق المانيا." "فهل تتوقع منهم حقاً ان يكونوا راغبين في الدفع للعاطلين عن العمل الفرنسيين؟" نقلاً لوجهة نظر واسعة الانتشار مفادها ان الاتحاد النقدي سيواجه أزمة عاجلاً وليس آجلاً، وسيحفز هذا الوحدة السياسية الضرورية . وحذر الكاتب بقوله "انها قفزة ايمان جَدّلِيّة حقاً تشير الى ان أي أزمة تفاقم الاختلافات والتباينات بين البلدان الأوروبية هي السبيل الأفضل لتوحيدها."

ومادامتُ انا هذا الكاتب، فانه ينبغي ان أُضيف أنني لم اتوقع ثلاثة أمور مهمة . أولاً، لم أتوقع ان ينجح الاتحاد النقدي لمدة طويلة. إذ في بحر ما يقارب العقد من الزمان، بدا اليورو في ان يكون قوياً، متقدماً شيئاً فشيئاً على الدولار بوصفه عملة عالمية للمبادلات التجارية والإدخار . فبالنسبة للأعمال التجارية، أبعد اليورو خطر تقلبات نسب التبادل داخل منطقة اليورو . وبالنسبة للدول خارج منطقة اليورو، كان من المبهج تحقيق القدرة على الترحال من طرف القارة الأوروبية الى طرفها الآخر دون وجوب تغيير العملات. ولو تم زيارة دبلن أو مدريد أو اثينا لتم مشاهدة مدن تزدهر كما لم يحدث من قبل. والعجيب انه في العام ٢٠٠٣ غنى اولئك الشباب البولنديين قصيدة "الى السعادة" لشيلر أملاً في الانضمام الى الايرلنديين والاسبان واليونانيين السعداء . وأنا* مثل الآخرين المتعاطفين مع المشروع كنت قد تهدهدت بشعور بالامان كاذب.

ولأن الانهيار جاء بعد ان كان متوقعاً أساساً، فانه كان أسوء حينما وقع . وعبر الزمن، قامت اختلالات هائلة بين بلدان مركز منطقة اليورو، بلدان شمال أوروبا بدرجة رئيسة (المانيا، فوق كل شيء)، والبلدان الطرفية [١]، بلدان جنوب أوروبا لا سيما البرتغال وايرلندا واليونان واسبانيا والتي تدعى احياناً بطريقة فظة "الخنازير"[٢] ("the "pigs").

مما لا ريب فيه، ان الصدمات الأولية التي أحدثت الهزة جاءت من خارج أوروبا، في سوق المراهنات شبة الرئيسة في الولايات المتحدة . وفي نطاق هذا المعنى، فان مخاضات منطقة اليورو هي جزءٌ من أزمة أوسع للرأسمالية المالية الغربية.[٣]

---

* الضمير هنا يعود على الكاتب تيموثي غارتون أش. (المترجمة)

[١] أي البلدان الواقعة على اطراف منطقة اليورو. (المترجمة)

[٢] مصطلح يستخدم في الاقتصاد والمال. وجدت التسمية في تسعينيات القرن الماضي . وهي تشير عادة الى اقتصادات البرتغال، وايرلندا، واليونان، واسبانيا. وأطلقت هذه التسمية **PIGS** (أي الخنازير)، نسبة إلى الأحرف الأولى من أسماء هذه الدول الاوروبية الأربع من الصف الثاني في أوروبا والتي تعاني من ازمات اقتصادية ضخمة. (المترجمة)

[٣] الرأسمالية المالية شكل من اشكال الرأسمالية، ظهرت بعد تطور وظيفة البنوك، حيث انتقلت هذه الأخيرة من دور إيداع وحفظ الأموال إلى المساهمة بشكل فعال في الاقتصاد، إن لم نقل العمود الفقري الرئيس لكل الاقتصاد العالمي. (المترجمة)

فوق ذلك، فان الشيء الثاني الذي لم نتوقعه تماماً في التسعينيات كان المدى الذي قد تولد فيه منطقة اليورو صدماتها اللامتماثلة . فبينما المانيا، التي ما زالت تترنح تحت وطأة العبء المالي لتوحيد شطريها، خفضت بشكل مؤثر تكاليف العمل ووازنت إنفاقها على الرفاهية، واصبحت منافسة مرة اخرى، فان الكثير من الدول الطرفية سمحت لتكاليف العمل الواحدة بالارتفاع.

وبينما حافظت المانيا وبعض بلدان شمال أوروبا الآخرى على نظام مالي ومستويات معتدلة من الدين، فان الكثير من البلدان الطرفية قد تمادت في ذلك . في بعض المناطق. مثل اليونان، فان الإنفاق العام هو الذي ارتفع فجأة، اما في بلدان اخرى، مثل ايرلندا واسبانيا ، فان ما ارتفع هو الإنفاق الخاص. والمفتاح السحري لكلا النوعين من الإفراط كان هو عينه : ان الحكومات والشركات والافراد يمكنهم الاقتراض بنسب فائدة منخفضة على نحو لم يسبق له مثيل بفضل المصداقية التي منحتها عضوية منطقة اليورو لبلدانها . في الواقع، ان اليونان، التي تسللت الى منطقة اليورو في العام ٢٠٠١ بمساعدة احصائيات كاذبة، يمكن ان تقترض، على الأغلب، كما لو كانت المانيا.

لذلك، حينما طُلب من المانيا المساعدة في إنقاذ (bail out) هذه البلدان، فان الناخبين الالمان كانوا ساخطين، وهو سخطٌ يمكن فهمه . إذ تساءلوا لماذا يجب علينا ان نعمل على نحو شاق ونتقاعد بسن متأخرة لكي يستطيع هولاء اليونانيون والبرتغاليون اللامبالون التقاعد بسن أبكر وليجلسوا تحت الشمس على الشواطئ ؟ وعبرت بيلد [1]، الصحيفة الألمانية الأوسع انتشاراً، عن السخط والغضب في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠ وذلك بقولها "يعوا جزركم، انكم تفسدون اليونانيين."

وكان للألمان وجهة نظر حسنة : إذ أبدوا تعقلاً ملحوظاً لم تُبدِ الدول الطرفية . ولكن للقصة وجهاً آخر. ان اللحظة التي أُميط فيها اللثام عن ان ميثاق الاستقرار والنمو (الذي تشكل ليخلف لمعيار التقارب) عديم الجدوى، كانت حينما انتهكت المانيا هي نفسها، مع فرنسا، حد العجز البالغ ثلاثة بالمئة من اجمالي الناتج القومي في المدة ٢٠٠٣ . ٢٠٠٤. إذ ان الجزاءات المنصوص عليها في المثياق لم تكن حتى مُلزمة.

فضلاً عن ذلك، أصابت المانيا نجاحاً كبير الى حد ما لأن البلدان الطرفية أصابت اخفاقاً . إذ ان بلدان منطقة اليورو الطرفية لم تعد تستطيع ان تنافس المانيا على السعر لأنها خفضت قيمة عملاتها

[1] صحيفة بيلد هي صحيفة ألمانية تصدر يومياً فيما عدا يوم الأحد والعطل الرسمية في ألمانيا صدر العدد الأول منها في (٢٤ حزيران/يونيو ١٩٥٢)عن شركة أكسل شبرينقر. (المترجمة نقلاً عن موقع الموسوعة الحرة على الانترنت)

الوطنية وان جزءً من انفاقها بنهم ذهب الى شراء مزيدٍ من سيارات البي ام دبليو (BMW) وغسالات بوش الألمانية.

كما مَكّن اليورو المصدرين الالمان أيضاً من تسعير بضاعتهم باسعار تنافسية في أسواقٍ مثل اسواق الصين. (إذ قدرت دراسة أعدها كل من ناثان شيتز وروبرت سوكين من بنك سيتي غروب [1] بان نسب التبادل الحقيقية المنخفضة لألمانية بواسطة اليورو قد رفعت فائضها التجاري الحقيقي الى ما يقارب ثلاثة بالمئة من إجمالي الناتج القومي س نوياً.) وكما أشار الاقتصادي مارتن فيلدشيتان [2] على صفحات مجلة الفورين افيرز [3] ان الفائض التجاري لالمانيا البالغ ٢٠٠ مليار دولار في العام ٢٠١١ ساوى تقريباً العجز التجاري لبقية بلدان منطقة اليورو مجتمعة . ومما تجدر الاشارة اليه، ان المانيا كانت لأوروبا كما تكون الصين للعالم: المصدر الذي يحتاج الآخرين للاستهلاك.

علاوة على ذلك، أعادت المانيا وبلدان شمال أوروبا الآخرى تدوير تلك الفوائض الى حدّ ما من خلال تقديم القروض الى اليونانيين والايرلنديين والبرتغاليين والإسبان . لذا عندما انقذت المانيا بلدان منطقة اليورو الطرفية، فانها كانت تنقذ مصارفها أيضاً.

العنصر الثالث الذي راح يتنبأ به القليلون في التسعينيات كان المقياس المتصاعد وسرعة الأسواق المالية العالمية وحماقتها . والأمر الأكثر فظاعة، ان معظم أسواق السندات قد ساهمت في الاختلال المتزايد من خلال سوء تقدير المخاطر السيادية[4] عموماً وخطر التفاضلية بين مختلف السندات الحكومية في منطقة اليورو خصوصاً . ورغم وجود فقرة "لا انقاذ" في معاهدة ماستريخت، فان تجار

[1] سيتي غروب هي أحدى أكبر شركات الخدمات المالية الأميركية . مقرها الرئيس في مدينة نيويورك . وقد نشأت الشركة على إثر عملية الاندماج الكبرى التي تمت بين عملاق البنوك سيتي كورب والتكتل المالي ترافلرز غروب في ٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٨. تتمتع سيتي غروب بأكبر شبكة خدمات مالية في العالم. (المترجمة)

[2] مارتن فيلدشتاين هو أستاذ العلوم الاقتصادية في جامعة هارفرد الأميركية والرئيس المساعد للمكتب القومي للأبحاث الاقتصادية في الولايات المتحدة. شَغِل منصب رئيس لمجلس المستشارين الاقتصاديين في عهد الرئيس ريجان، وهو عضو في المجلس الاستشاري للتعافي الاقتصادي التابع للرئيس أوباما. (المترجمة)

[3] المقال منشور في عدد المجلة الصادر في كانون الثاني/يناير . شباط /فبراير ٢٠١٢، وصدرت عن مركز الدراسات الدولية ترجمة للمقال تحت عنوان "إخفاق اليورو ... عملة لا تستطيع الصمود" ضمن إصدار سلسلة دراسات مترجمة عدد ٤٤ في آذار/مارس ٢٠١٢.

[4] المخاطر السيادية هي أحد انواع مخاطر الائتمان، ومؤشر لمدى قدرة البلد وامكانياته لسداد ديونه المضمونة من قبله والتي تصدر عادة بالعملة المحلية أو العملة الاجنبية المضمونة (المترجمة) من قبله والتي تصدر في الاغلب لهيئة سندات حكومية . (المترجمة نقلاً عن البحث الموسوم "أثر المخاطر السيادية لمنطقة اليورو على الواقع الاقتصادي العراقي"، إعداد محمد يونس سلمان، البنك المركزي العراقي والمنشور على الانترنت).

السندات تصرفوا كما لو ان الخطر المترافق مع الإقراض للحكومتين اليونانية أو البرتغالية كان أعلى بمقدارٍ ضئيلٍ فحسب من خطر الإقراض لالمانيا أو هولندا.

حينما راح الايمان بتماسك منطقة اليورو ينهار بعد رؤيتها النور بعشرة اعوام، اندفعت الأسواق الى الطرف الآخر . ومرة بعد مرة، عاقبت الأسواق التدابير نصف المتأخرة لقادة اليورو برفع هامش العائد على السندات، لذا وجد بلدٌ بعد اخر تكاليف ا قراضه ترتفع. وبنسب فائدة بلغت من خمسة الى ثمانية بالمئة، يبات من العسير بمكان على أية حكومة تحمل عبء دينها حتى مع انتهاجها النظام المالي ذي الأسلوب الألماني الأكثر نموذجية، ومع قيامها بالاصلاح الهيكلي . وهكذا، لم يكن ثمة إلا الكثير الذي حتى القادة الأكثر حك مة والأكثر مسؤولية اقتصادياً، مثل رئيس الوزراء الايطالي ماريو مونتي، يمكن ان يلتمسوه من شعبهم.

مثلث الاختلال الوظيفي لأوروبا

بنيوياً، تجد أوروبا الآن نفسها عالقة بمثلث الاختلال الوظيفي، بين السياسة الوطنية، والسياسات الأوروبية، والأسواق العالمية . ومنذ ان قامت الجماعة الأوروبية للفحم والصلب [1] في العام١٩٥١، فان الوحدة كانت وما برحت تتم عبر تطوير السياسات الأوروبية المشتركة : من تلك التي تدور حول الزراعة وصيد الأسماك والتجارة وصولاً الى السياسة النقدية . ولكن السياسات الديمقراطية للاتحاد الأوروبي بقيت قومية بعراد.

وبينما كانت الرواسب البركانية تثور تحت قشرة منطقة اليورو الهادئة ظاهرياً، أمضى القادة الأوروبيون الكثير من زمن العقد الأول من القرن الحادي والعشرين منهمكين في مسعى طموح لكتابة ما

[1] **الجماعة الأوروبية للفحم والصلب، وتعرف اختصارًا باسم(ECSC) ،كانت منظمة مكونة من ست دول هدفت إلى توحيد أوروبا الغربية خلال الحرب الباردة، ووضع أساس للتطورات الحديثة في أوروبا . وتعد الجماعة أول منظمة تستند إلى مبادئ أعلى من مبادئ القوميات . كان وزير الخارجية الفرنسي روبرت شومان أول من اقترح تأسيس الجماعة في ٩ ايار /مايو ١٩٥٠ بوصفها وسيلة لمنع اندلاع حرب جديدة بين فرنسا وألمانيا. حيث أعلن أن هدفها: ليس جعل الحرب لا يمكن تصورها فحسب، بل جعلها مستحيلة مادياً.**

وقد تم تأسيس الجماعة رسمياً بموجب معاهدة باريس ١٩٥١، ولم يتم توقيعها من جانب فرنسا وألمانيا الغربية فحسب، بل أيضاً من جانب إيطاليا وبلجيكا ولوكسمبورغ وهولندا، وذلك على أمل أن تقوم الجماعة بإنشاء سوق مشتركة للفحم والصلب.

وفي عام ١٩٥٤م وقع اتفاق ارتباط بين الجماعة والمملكة المتحدة، وفي ١٩٥٦م وقع اتفاق تشاور بين الجماعة وسويسرا . وكان الغرض الرئيس للجماعة هو الرقابة على إنتاج وتسويق الفحم والصلب في الدول الأعضاء . في عام ١٩٦٧ تم دمج جميع مؤسسات الجماعة مع الجماعة الاقتصادية الأوروبية، (التي أصبحت فيما بعد جزءً من الاتحاد الأوروبي)، لكنها احتفظت بهويتها المستقلة . لكن في عام ٢٠٠٢ انقضت معاهدة باريس بدون أي رغبة في تجديدها، فتم وقف جميع أنشطة الجماعة الأوروبية.

نجحت الجماعة، خلال مدة وجودها، في إنشاء سوق مشتركة، كما مهدت لقيام الاتحاد الأوروبي . (المترجمة نقلاً عن موقع الموسوعة الحرة على الانترنت)

يسميه البعض دستور أوروبا . وللتغلب على مشكلات ومصاعب تعميق الاتحاد الأور وبي عبر الاتحاد النقدي، وتوسيعه من خلال التوسع التاريخي نحو أوروبا الشرقية، اقترحوا مجموعة جديدة من الترتيبات المؤسسية لدول الاتحاد الأوروبي السبعة والعشرين (منذ العام٢٠٠٧) ول٥٠٠ مليون شخص. ولكن في الاستفتاءات، رفض المصوتون في فرنسا وهولندا حتى نسخة مُلطفّة لهذه الخطط النبيلة . وراح جيريميك، ذلك الأوروبي العاطفي والواقعي أيضاً في الوقت نفسه يُعلق بقصارى الكلام قبل وفاته في العام ٢٠٠٨، قائلاً "الأمم لا تريدها".

وهكذا تمخض الجبل مرة اخرى وولد فأراَ . واعطت معاهدة لشبونة [١] (Treaty of Lisbon)، التي دخلت حيز التفـيذ في العام ٢٠٠٩، مزيداً من الصلاحيات لبرلمان أوروبي منتخب مباشرة. بيد ان عملية اتخاذ القرارات في الاتحاد الأوروبي اليوم ما انفكت تتألف من سياسيين قوميين يعقدون صفقات خلف الأبواب المغلقة في بروكسل . وان السياسة والإعلام اللتين يقلقون بشأنهما هما قوميتان وليستا أوروبيتين. وثمة جماعات سياسية على أمتداد أوروبا، تعتمد على اولئك الذين في البرلمان الأوروبي، ولكن ليس ثمة سياسة أوروبية حقاً . ان متوسط الإقبال على انتخابات البرلمان الأوروبي انخفضت مع كل تصويت منذ ان بدأت الانتخابات المباشرة في العام ١٩٧٩. وعلى الرغم أن ثمة وسائل إعلام على امتداد أوروبا جيدة، تشاهدها وتقرأها قلة سعيدة، إلاّ انه ليس ثمة مجال عام أوروبي أوسع.

وقال المؤرخ الفرنسي ارنست رينان [٢] ان أي امة هي "استفتاء شعبي يومي." حسناً، الاتحاد الأوروبي اليوم لديه انتخابات كل يوم تقريباً . ولكنها انتخابات قومية تجري بلغات مختلفة وبإعلام قومي .

---

[١] معاهدة لشبونة هي معاهدة إصلاح ترسي للاتحاد الأوروبي أساساً جديداً، وقعت من قبل الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي في ١٣ كانون الأول /ديسمبر ٢٠٠٧، في مدينة لشبونة البرتغالية . أصبحت سارية المفعول في ١ كانون الثاني /يناير ٢٠٠٩ وهي مودعة لدى حكومة ايطاليا. (المترجمة)

[٢] أرنست رينان (٢٨ شباط/فبراير ١٨٢٣ – ١٨٩٢)، مؤرخ وكاتب وفيلسوف ومستشرق فرنسي، اشتهر بترجمته ليسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقداً تاريخياً علمياً وإلى التمييز بين العناصر التاريخية والعناصر الأسطورية الموجودة في الكتاب المقدس . واشتهر أيضاً بتعريفه للقومية وخاض نقاشاً حاداً مع المفكرين الألمان الذين كانوا يرون سكان منطقتي ألزاس ولورين (الفرنسيتين اللتين كانت ألمانيا تحتلهما منذ ١٨٧٠) ألماناً من حيث العرق فردّ رينان قائلاً إن الانتماء إلى قوم ليس مسألة عرق بل مسألة إرادة ووصفه بالاستفتاء اليومي . فلا يزال هذا التعريف للقومية يلعب دوراً كبيراً في تصور الفرنسيين لشعبهم وهويتهم . فلذلك أصبح رينان رمزاً من رموز فرنسا الجمهورية العلمانية القومية وأطلق اسمه على كثير من المدارس والمباني العمومية.

حصل على درجة الأستاذية في الفلسفة في عام ١٨٤٨. وحصل على الدكتوراه في الآداب في عام ١٨٥٢ عن أطروحة موضوعها «ابن رشد والرشدية» وقد أسهمت في تعزيز مكانته بين المستشرقين.

وعلى نحو متزايد، تُظهر الحملات الانتخابية الأحزاب وهي تلوم متاعب البلد الحالية وتُلقي بها على كاهل دول أوروبية اخرى، او على كاهل الاتحاد الأوروبي نفسه، أو على كليهما . واثناء زيارتي اوائل هذا العام ٢٠١٢ الى ماستريخت تلك المدينة القلقة الآن بشأن مكانتها في كتب التاريخ. أُخبرت كيف ان السياسي الهولندي خيرت فيلدرز[١] (Geert Wilders) المناهض للهجرة والاسلام قد أعاد توجيه ناره السياسية نحو"أوروبا". إذ يعتقد ان الاصوات تكمن في هذه المسألة الآن.

في الوقت عينه، تصطدم الأسواق العالمية المذعورة بالسياسات الأوروبية والسياسة القومية . وما دام يجد بلدٌ بعد اخر درجة قدرته على السداد تنخفض وترتفع تكاليف اقراضه الى مستويات عالية، فان الحكومة ما تلبث ان تخاف وتدعو الى قمة طارئة في بروكسل . وبينما تدق الساعة في لحظاتها الأولى، يكون القادة القوميون المنهمكون مشتتين بين خوفهم مما ستفعله الأسواق لهم، حينما تفتح المبادلات التجارية أبوابها في صباح اليوم التالي، وخشيتهم من رد فعل إعلامهم القومي وشركائهم في إئتلاف بلدهم وبرلماناتهم حينما يعودون الى بلادهم.

وحالما ينتهي اللقاء، يخرج بسرعة كل قائد من قاع ة المؤتمر ليطلع وسائل إعلامه /أو إعلامها ويعلمها بآخر المستجدات . ولذا، في كل مرة، ليس ثمة نسخة واحدة فحسب لأي قمة أوروبية بل ثمة ٢٧ نسخة مختلفة علاوة على النسخة الثامنة والعشرين، وهي نسخة الاجتماع السري السلمي التي

نشر في عام ١٨٥٥ كتابه "التاريخ العام للغات السامية ونظامها المقارن " تناول فيه علاقة النحو ا لعربي بمنطق أرسطو في جزءين . أوفده الإمبراطور نابليون الثالث في عام ١٨٦٠ إلى المشرق للقيام بأعمال تنقيب آثاري، فزار سورية وفلسطين . وقد دوّن نتائج هذه البعثة في كتاب بعنوان "البعثة في فينيقيا" (١٨٧٤.١٨٦٤).

نشر كتابه "مستقبل العلم" في عام١٨٩٠، يظهر فيه تأثره بالفيلسوف الألماني هردر فيما يتصل بتطور الإنسانية . تميز رينان بنزعة عقلانية صريحة، وقد أعطى للعلم أهمية كبرى وأكد أولوية الفكر وتطور العقل المستمر، فهو يرى أن "غاية العلم هي نمو العقل وتطوره " وأن العلم سينظم الإنسانية ليصل بها إلى الكمال. (المترجمة نقلاً عن مجموعة مواقع على الانترنت لا سيما موقع الموسوعة العربية)

[١] سياسي يميني هولندي متطرف، ولد في العام ١٩٦٣ في مدينة فينلو المتاخمة للحدود الألمانية. أصبح في العام ١٩٩٨ نائبا في البرلمان عن حزب "الشعب من أجل الحرية والديمقراطية VVD". وفي الثاني من سبتمبر / أيلول ٢٠٠٤ أصبح نائبا مستقلاً . وفي مطلع العام ٢٠٠٦ أسس حزب الحرية وصار رئيسا له . شغل مناصب أخرى منها عضو لجنة الديمقراطية وحقوق الإنسان ما بين العامين ١٩٩٨ و٢٠٠٢. وعضو الجمعية العامة لمنظمة حلف شمال الأطلسي. ومن آرائه المعروفة أيضا أنه ضد انضمام تركيا إلى الا تحاد الأوروبي. أرسل إلى البرلمان الهولندي مشروع قانون يقترح حظر ارتداء المسلمات للنقاب في الأماكن العامة، على أن تصل عقوبة ارتدائه إلى السجن ١٢ يوماً أو غرامة قدرها ٣٣٥٠ يورو. وكان قد دعا إلى تصويت على سحب الثقة عن وزيرين مسلمين بالحكومة وشكك في ولائهما للبلاد بسبب جنسيتهما المزدوجة. في نيسان /أبريل ٢٠٠٦ تلقى تحذيراً من رئيس مكافحة الإرهاب الهولندي من أن تصريحاته المعادية للإسلام أثارت غضباً في الشرق الأوسط وأنه تمادى في هذه التصريحات إلى حد بعيد . وهو كاتب ومنتج فيلم "فتنة " (الذي صدر في ٢٠٠٦/٩/٣) الذي يبحث فيه عن علاقة أو تأثير الإسلام والقرآن على الإرهاب. (المترجمة نقلاً عن مجموعة مواقع لا سيما موقع صحيفة الوسط البحرينية – العدد ١٨٠٠ – السبت ١١ أغسطس ٢٠٠٧م)

يفسرها ويشرحها سلطان الاتحاد الأوروبي على مؤسساته. وهذا هو تأثر راشومون [1] السياسي لأوروبا، بثمان وعشرين نسخة متضاربة للحدث عينه، تصدر بثلاث وعشرين لغة. انها طريقة غريبة لإدارة قارة.

المقومات المفقودة

كان الاتحاد النقدي لأوروبا جسراً طويلاً جداً. لا يعني انه جسر لا ينبغي عبوره بل جسر تم عبوره سريعاً جداً قبل ان تكون أوروبا مستعدة استراتيجياً للدفاع عنه . من نافل القول، وبغية المواصلة لعقد آخر أو لعقدين من الزمان بنظام تثبيت الهوامش (الحدَوُّد) الذي يمكن ان تتقلب فيه أسعار الصرف . فان ما يسمى بآلية سعر الصرف [2] تكون مطلوبة. ولكن من العسير بمكان عدم الا تفاق مع هذا الحكم الذي يستعيد الاحداث الماضية والذي يقدمه المعلق الاقتصادي مارتن وولف [3] بقوله "تأمل كيف ستكون أوروبا في حال أفضل لو ان آلية سعر الصرف استمرت بنطاق أوسع."

كما علينا ان نضع بعين الإعتبار والحسبان سبُلاً أخرى لم يتم الخوض في دروبها . فماذا لو راحت أوروبا تعمق سوقها المشتركة التي ما زالت بعيدة عن ان تكون كاملة بدلاً عن تقديم اليورو؟ وماذا لو رَكز الاتحاد الأوروبي كُلّه على تحسين قدرته على التنافس مثلما فعلت المانيا ذلك بشكل مؤثِّر، وليس مجرد التشدق بالكلام إزاء ذلك الهدف في بيان له للنوايا الحسن ة يدعى "أجندة لشبونه "؟ ماذا لو أُستخدمت تلك الفسحة والمتسع من الوقت لتطوير سياسة خارجية أكثر فاعلية؟ ولكن، لات ساعة مندم. إذ تقول مزحة انكليزية قديمة وغير صحيحة سياسياً الآن ... ان زوجين أميركيين وصلا الى مفترق

---

[1] تأثر راشومون هو تأثير الذاتية على الإلمام بالحوادث المختزنة بالذاكرة، إذ بسبب هذا التأثير يكون ل شاهدين على الحادث نفسه قصص مختلفة إلا أن كل تلك القصص معقولة.

الاسم مأخوذ من فلم راشومون للمخرج أكيرا كوروساوا، الذي يتحدث عن جريمة شهد عليها ٤ أشخاص والذين يصفون الحادث بقصص متناقضة لبعضهم البعض . وهو فيلم ياباني بالأبيض والأسود أخرجه أكيرا كوروساوا عام ١٩٥٠. تم اختيار الفيلم للمشاركة في مهرجان البندقية للأفلام السينمائية، وحاز على الجائزة الأولى . ثم كُرم مرة أخرى عندما منحته الأكاديمية السينمائية في أميركا أوسكار أفضل فيلم أجنبي عام ١٩٥١. يعده النقّاد السبب في جلب انتباه جمهور المشاهدين في الغرب إلى السين ما اليابانية . (المترجمة نقلاً عن موقع الموسوعة الحرة)

[2] تعد آلية سعر الصرف العنصر المحوري في اقتصاد المالية الدولية، كما تعد عنصر القطب في الفكر المالي الحديث، ولها أهمية بالغة في تعديل وتسوية ميزان المدفوعات للدولة وخصوصاً تلك البلدان النامية. (المترجمة نقلاً عن موقع الموسوعة الحرة)

[3] معلق اقتصادي مرموق، يقول ان منطقة اليورو لن يصلح حالها الى ان تحدد المانيا كيفية تحقيق نمو وثروة من دون ان تُفقِر جيرانها وشركاءها التجاريين. وكما يؤكد على ان جذور ازمة الديون والعملة والصيرفة ليست في اليونان أو البرتغال أو ايرلندا أو حتى اسبانيا، بل انها تكمن في المانيا. (المترجمة)

طرق في عمق الريف الايرلندي فراحا يسألان فلاحاً يرتدي التوبر[1] عن وجهة الطريق الى تيبيراري[2]، فيرد الفلاح الايرلندي قائلاً "لو كنت مكانكما لما بدأت من هنا." هنا حيث نحن الآن.

وبانقضاء حزيران/ يونيو هذا العام (٢٠١٢)، عقد الاتحاد الأوروبي قمة "انقاذ اليورو" اخرى هي القمة التاسعة عشرة حول الأزمة باحصاء تق ريبي. قالت المانيا خلالها انها ستسمح باستخدام الصناديق الأوروبية الخاصة لمساعدة البنوك الاسبانية التي تعرضت للخطر، وان دول منطقة اليورو عقدت العزم على إيجاد صيغة إشرافية مصرفية موحدة يديرها البنك الأوروبي . وعلى الرغم من ان أحداً ما لم يلاحظ ذلك، جاء بيان ا لقمة تذكيراً بامور مفيدة كان الاتحاد الأوروبي قد دأب على القيام بها . فعلى سبيل المثال، توصل القادة الأوروبيون الى إتفاق حول نظام براءة إختراع أوروبي موحد والذي يتوقع ان تكون تكاليف تسجيل براءة الاختراع أقل للشركات الأوروبية بمقدار ثمانين بالمئة . كا قرروا فـتح مفاوضات انضمام الى الاتحاد الأوروبي مع الجبل الاسود (مونتينيغرو) وهي دولة مستقلة حديثاً بعد ثلاثة عشر عاماً خلت كانت فيها ما تزال متورطة في حروب يوغسلافيا السابقة.

وحتى وقت كتابتي هذه المقالة، لا أحد يعرف كيف ستنتهي هذه القصة الملحمية . إذ تشمل الاحتمالات انهياراً على نحو فوضي كامل وتخبط مستمر، وعلى نحو أكثر تفائلاً توحيد نظمي في اتحاد مالي وسياسي حقيقي. مع ذلك، وحتى لو تسير منطقة اليورو سيراً معقداً نحو اتحاد سياسي، فانه ما زال عليها تحقيق التضامن بين مواطنيها الضروري لدعمها، وهي درجة من المواطنة الأورو بية لم تتحقق حتى الآن. والسؤال المفتوح الآخر هو كيف ان مركز منطقة اليورو موحد أكثر والذي قد يضم عينه دول دائنة ومَدِينة ذات وجهات نظر مختلفة جداً، قد يرتبط مؤسسياً وسياسياً بالدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي وليس بمنطقة اليورو مثل المملكة المتحدة والسويد وبولندة.

وعلى وفق تقدير للاحتمالات المستقبلية مبني على أساس الاتجاه الحالي قدمه محللون في البنك الهولندي (ING)، قد يسبب انهيار كليّ لمنطقة اليورو هبوطاً في إجمالي الناتج القومي بمقدار أكثر من عشرة بالمئة على مدى عامين في الاقتصادات الأوروبية القائدة كلها، ومنها المانيا. ويأتي على رأس المصاعب بالفعل تلك التي قد تفضي الى تطرف سياسي خطير .(وعلى العكس في ثلاثينيات القرن

[1] نسيج صوفي خشن. (المترجمة)

[2] تيبيراري إحدى المقاطعات الست التي تُكوّن منطقة منستر في جمهورية أيرلندا، وهي تُعدّ من أكبر المقاطعات الداخلية مساحة، وتغلب عليها الأنشطة الزراعية، كما أن بها عدداً من مدن التسويق التجاري أكبرها كلونميل. وقد اشتهرت تيبيراري بسبب أنشودة من أناشيد الحرب العالمية الأولى تقول : ما أطول الطريق إلى تيبيراري. يبلغ عدد سكانها ١٣٢,٦٢٠ نسمة. (المترجمة نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

العشرين، فان مثل هذا التطرف الى اقصى اليمين والى اقصى اليسار كان وما فتأ محدود الى حد بعيد بشكل ملحوظ، حتى في اليونان . ويعزى الامر الى مرونة ا لديمقراطيات الأوروبية المعاصرة .) ولكن، حتى لو تمزقت منطقة اليورو، فانه سيبقى هناك مكان يسمى أوروبا ومن الأرجح ان تبقى مجموعة من مؤسسات تدعى الاتحاد الأوروبي . وسيكون هنالك ثمة تحدٍ تاريخي جديد، مع انه مؤلوف أيضاً للأوروبيين: الاّ وهو ان ينهضوا من عثرة الإنهيار ويعيدوا بناء أنفسهم.

لا جرم في القول ان أزمة اليوم هي الاختبار الأكبر لما كان وما انفك يسمى "طريقة مونيت" في التكامل، بعد جان مونيت [1]، الأب المؤسس للتكامل الأوروبي . فقد اقترح مونيت المضي قدماً، خطوة خطوة، باجراءات تكامل اقتصادي تكنوقراطي أملاً في ان هـ ذه الإجراءات قد تحفز الوحدة السياسية . على الأقل خلال أوقات الأزمات . وقد فسر مونيت يوماً ما بان "الأزمات هي الموحد الأكبر."

ولكن حتى في الأربعين سنة الأولى من الوحدة الأوروبية، فان الأزمات جمعت أحياناً أوروبا وأحياناً اخرى لم تفعل . فاذا ما رامت، في الأغلب الأعم، دعم الوحدة بدل التقسيم، فان ذلك كان في جزء كبير منه بفضل ذكريات زمن الحرب وضرورات الحرب الباردة . لذا، أين هي الآن محفزات الوحدة ؟

وتبقى سوق مشتركة لـ ٥٠٠ مليون مستهلك جذباً اقتصادياً قوياً لمعظم البلدان الأوروبية . ولكن، لم يعد يبدو واضحاً، كما كا ن، ان أوروبا تحقق بثباتٍ ازدهاراً ورفاهية لكل مواطنيها . وتنظر، بازديادٍ، البلدان المصدرة، لا سيما المانيا، ومزودي خدمة عالمية مثل المملكة المتحدة للأسواق الناشئة حيث يكون النمو.

وعلى عكس ايام الحرب الباردة، ليس ثمة تهديد واضح في جبهة أوروبا . وحتى لو حاول فلاديمير بوتين قدر ما يستطيع، فانه لا يتكافأ مع ستالين أو حتى بريجينيف في ان يشكل تهديداً لأوروبا . فهل تستطيع الصين ان تتدّخل بذلك الدور؟ ودون وصم الصين كعدوٍ، فان الأساس المنطقي الجديد الأكثر الِزاماً للوحدة الأوروبية هو، في الحقيقة، ظهور قوى عظمى غير غرب ية: الصين، بدرجة رئيسة، كذلك الهند والبرازيل وجنوب افريقيا أيضاً.

ولا يستطيع المرء ان يقدر استقرائياً من التيارات الاقتصادية والديموغرافية الحالية، ولكن من الأرجح انه في عا لم عام ٢٠٣٠، ستكون حتى المانيا قوة صغيرة الى متوسطة . عليه، فان السبيل الفعال

[1] **دبلوماسي فرنسي قدير وواحد من الآباء المؤسسين للاتحاد الأوروبي في الخمسينيات. (المترجمة)**

الوحيد للدفاع عن الحريات ودعم المصالح المشتركة لجميع الأوروبيين سيكون بالعمل معاً وباستخدام لغة واحد. على الصعيد الفكري، يكون هذا الجدل مقنعاً . لكن عاطفياً، وللسيطرة على جمهور أوسع، فان هذا الجدل لا يقارن مع الوجود المنظور للجيش الأحمر في قلب أوروبا.

واذا لم تعد روسيا تناسب رسالة تهديد خارجي، فان الولايات المتحدة لن تعود تمثل الداعم الخارجي الفعال. فقد تساءل جورج دبليو بوش في لقاءٍ خاص "هل تريدون ان ينجح الاتحاد الأوروبي؟ " جزء من ادارته، على الأقل، في مدة رئاسته الأولى مال الى الإجابة بـ لا . اما الرئيس باراك اوباما كان سيرد على وجه التحديد بنعم، ولكن الى ان هددت أزمة منطقة اليورو الاقتصاد الأميركي . وعليه، فان آمال إعادة انتخابه لم تكن تشكل أولوية لدى الاتحاد الاوروبي . إذ ان ادارته اخذت أوروبا مثلما وجدتها وتعاملت تعاملاً واقعياً مع بروكسل أو مع البلدان الفرادى . مهما عملت. وكان وما برح تركيز الولايات المتحدة الجيوبوليتكي على الصين وآسيا على نحو أكثر عمومية، وليس على روسيا وأوروبا.

وعلى نحو ممكن تصوره، يمكن ان يتغير موقف الولايات المتحدة اذا ما تم رؤية الصين بوصفها الاتحاد السوفيتي الجديد : أي تهديد جيوبولتيكي عالمي للغرب.[1] عليه، فان الخيار الوحيد الذي قد يكون مطروحاً امام واشنطن هو السعي وراء علاقة استيراتيجية أوطد مع أوروبا موحدة أكثر ومنها، على سبيل المثال، منطقة تجارة حرة عبر الاطلسي. ولعل أوروبا القديمة وابناء عمومتها عبر المياه قد تعمل باتجاه ما تخيله إدوارد بالادور[2]، رئيس وزراء فرنسا السابق "كاتحادٍ غربي". ولكن ثمة دليل واهٍ على وجود مثل هذا التفكير في الوقت الحاضر. في الواقع، تقدم الولايات المتحدة وأوروبا تسوياتها المتوترة مع الصين.

اما المحرك القديم الآخر للوحدة، الاّ وهو حنين الأوروبي الشرقي، فما برح يك ون لهذا المحرك بعض الجذب الآن. فالأوروبيون الشرقيون لديهم ذكريات أكثر حداثة عن الدكتاتورية والمصاعب والحرب. ويثمن الكثيرون الحريات الجديدة التي يتمتعون بها في ظل الاتحاد الأوروبي . ولبعضهم، يعني الانتماء الى

---

[1] للكاتب تيموثي جارتون آش (صاحب المقال الذي بين ايدينا) كتاب بعنوان "عالم حر" صدر في عام ٢٠٠٤ وهو يتحدث عن مستقبل الاتحاد الأوروبي وعالج مستقبل الغرب كشراكة إستراتيجية بين الولايات المتحدة وأوروبا، ولكنه يقول الآن " أن العلاقة يجب ان يعاد تعريفها ..ونحن لم نعد موحدين نتيجة لوجود عدو مشترك مثل الاتحاد السوفييتي ولكني أعتقد ان هناك اشتراكا في المصالح على المدى البعيد بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي". واعتقد الكاتب في حينها ان وصول رئيس جديد للبي ت الأبيض في عام ٢٠٠٩ ستكون لحظة مهمة في تلك العلاقة. (المترجمة)

[2] صدر له كتاب بعنوان "السلطة لا يمكن تقاسمها " في العام ٢٠٠٩ يقول فيه "أن السياسة بحاجة إلى المال، حيث تحولت السياسة إلى مهنة، تتطلب تنظيماً يزداد كلفة، باللجوء إلى محترفين يعرضون خدماتهم مقابل ربح مباشر، سرعان ما أصبحت مساعدتهم تؤمن أكبر ربح ممكن." (المترجمة)

النادي عينه بوصفهم أوروبيين غربيين، تحقيق حلم القرون القديمة. عليه، فسر أحد الاقتصاديين البولنديين لماذا ما تزال بولندة تطمح بالانضمام الى منطقة اليورو "نريد ان نكون على ظهر السفينة، حتى وان كانت تغرق !" ومما لا شك فيه انهم يفضلون ان تبقى السفينة طافية على سطح الماء . في الخريف الماضي(٢٠١١)، وفي حديث لوزير الخارجية البولندي في برلين قال "من المحتمل انني ساكون أول وزير خارجية بولندي في التاريخ يقول هذا، ولكن ها هي : انني أخشى القوة الألمانية أقل من خشيتي من بدء الخوف من لا فعالية المانيا."

ألمانيا الأوروبية، أوروبا الألمانية

لا غرو في ان ألمانيا هي المفتاح لمستقبل أوروبا، مثلما كانت وما أنفكت، بطريقة أو باخرى، على الأقل في بحر قرن من الزمان . ولعل سخرية المصادفات غير المقصودة تكون جادة، لا سيما، هنا . فاذا كان كول أول مستشار لألمانيا موحدة منذ عهد هتلر، فان فرانسوا هولاند هو أول رئيس اشتراكي فرنسي منذ عهد ميتران، وان ميراث ميتران هو ما عليه ان يثبت قدرته امامه . ان صندوق النقد، الذي اراد ميتران من خلاله الإبقاء على ألمانيا موحدة في مكانتها المناسبة . بقيادة مشتركة مع فرنسا، ولكن ما انفكت مختلفة عنها . انتهت بوضع ألمانيا في مقعد السائق الذي يقود القاطرة الأوروبية، مع فرنسا بوصفها زوجاً غاضباً متململاً في المقعد الأمامي المجاور لها (" استديري يساراً، انجيلا، استديري يساراً !").

إبان توحيد ألمانيا لم يكل السياسيون الالمان قط من رسم ملامح هدفهم من خلال إعادة قراءة ما قاله الكاتب توماس مان [١] " ليس من أجل أوروبا ألمانية بل من اجل ألمانيا أوروبية ".[٢] ولكن ما نشهده اليوم هو ألمانيا أوروبية في أوروبا ألمانية . من نافل القول ان ألمانيا هذه [٣] هي بلد أوروبي نموذجي : فهي المتحضرة، والديمقراطية، والإنسانية، والملتزمة بالقانون (وعلى الرغم من ان مان قد لا ينكر هذا) فانها ايضاً الممتازة في لعبة كرة القدم . ولكن "جمهورية برلين" هي أيضاً في مركز أي أوروبا ألمانية، على الأقل حينما نأتي على ذكر الاقتصاد السياسي، فان ألمانيا تحقق اهدافاً . (ولكن الشيء عينه لا يكون

[١] بول توماس مان هو أديب ألماني ولد في ٦ حزيران/يونيو ١٨٧٥ وتوفي في ٦ آب/أغسطس ١٩٥٥ في زيورخ. حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٩م. ترك ألمانيا عند استيلاء النازيين على الحكم وعاش في سويسرا مابين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٨م. وبعدها انتقل إلى الولايات المتحدة الأميركية ونال الجنسية الأميركية عام ١٩٤٤م، ثم عاد مرة أخرى إلى سويسرا حيث توفي هناك . لمان الكثير من الروايات الشهيرة، مثل موت في البندقية، والتي قام لوتشانو فيسكونتي سنة ١٩٧١ بتحويلها لفيلم حمل الاسم نفسه. (المترجمة)

[٢] هذا الخطاب ناشد به الروائي توماس مان جمهوراً من الطلاب في هامبورج في العام ١٩٥٣. (المترجمة)

[٣] يقصد الكاتب المانيا في عهد ميركل. (المترجمة)

صحيحاً في سياسة الدفاع والخارجية إذ ان فرنسا والمملكة المتحدة هما أكثر أهمية منها.) وهذا ليس دوراً سعت ألمانيا اليه، بل ان القيادة هي من اكرهتها على قبوله.

علاوة على ذلك، فاذا ما قادت الحاجة للفوز بالدعم لتوحيد شطري ألمانيا هيلموت كول للموافقة على اتحاد النقد الأوروبي بجدول زمني محكم، دون الاتحاد السياسي الذي اعتقده أساسياً لديمومته، فان توحيد ألمانيا قد غير موقف ألمانيا من المشروع الأوروبي . وان المجموعة نفسها من التطورات التاريخية المرتبطة مع بعضها ارتباطاً وثيقاً التي أوجدت وتوجد الآن، منذ عشرين عاماً، الحاجة لمساهمة ألمانية خاصة إزاء أوروبا قد ضاءلت كّلاً من الرغبة المثالية للبلد وحاجته المفيدة لتقديم تلك المساهمة.

ولو كان كول لا يزال مستشاراً فانه كان سيصر بلا ريب على وجوب إنقاذ اليورو من خلال التحرك تحركاً حاسماً نحو اتحاد سياسي، بيد ان ميركل ورفقاءها قد تصرفوا تصرفاً مختلفاً تماماً بتقديمهم مترددين الحد الادنى المطلوب للحيلولة دون الانهيار . ان ميركل المتواضعة وواضحة الكلام هي المشخّصة بطرق شتى للفضائل الأوروبية الحديثة والمدنية لهذه الألمانيا الجديدة . كما انها أيضاً تكتيكيّة سياسية محلية متقدة الذكاء وقاسية. وأياً كانت قناعاتها الشخصية، فانها تعرف انها تواجه ما يمكن ان يسمى الباءات الأربعة (four B): البوندستاغ (Bundestag) ومنه هاجر سياسيو ألمانيا الأكثر تأييداً لأوروبا الى البرلمان الأوروبي، (نتيجة غير مقصودة أخرى لمؤسسة مقصودة)، والمحكمة الدستورية [1] للبلد (Bundesverfassungsgerich) التي أُرسيت قواعدها بع د العام ١٩٤٥ لتكون الرقيب، (على وفق الاسلوب الأميركي، على سلطة القائد)، والبوندسبنك (Bundesbank) (الذي لا يزال مؤثراً جداً في النقاش الألماني)، وأخيراً وليس اخراً بليد(Bild) الصحيفة الشعبية الساخرة.

ويستاء الكثير من الألمان من فكرة انقاذ اليونانيين والاسبا ن ويتذكرون انه لم يكن لهم قول في قرار كول التخلي عن المارك الالماني . وفي استطلاع للرأي أُجري في ألمانيا في أيار /مايو ٢٠١٢ قال ليس اقل من ٤٩% من الذين اعطوا إجاباتهم في الاستطلاع انه كان خطأً طرح اليورو . وعليه،. فان الفوائد التي حصلوا عليها من اليورو لم تُفسر بشكل وافٍ . مع ذلك، فان هذه الألمانيا الأوروبية هي بلد حر ومتقبل للنقاش، وان البعض يقوم الآن بالمحاولة.

[1] في حكم للمحكمة الدستورية صدر في حزيران/يونيو ٢٠٠٩ نوهت المحكمة بأنه من الواجب أن يشارك البوندستاغ بشكل فعلي في إقرار القوانين واتخاذ القرارات على مستوى الاتحاد الأوروبي، إذا لم يكن من الجهات المنوط بها إقرار التعديلات والإصلاحات للاتفاقيات الأوروبية. (المترجمة)

الذاكرة والخوف والأمل

اختفت الآن القوة المحركة الوحيدة الأكبر للمشروع الأوروبي منذ العام ١٩٤٥ إلا وهي الذكريات الشخصية عن الحرب وحيث ان الذاكرة الفرد ية تتلاشى، فان الذاكرة الجماعية ينبغي ان تتدخل. فنتذكر دعوة اديلمان "نحن لم نلق حتفنا الا لنبقي ذكراهم حاضرة الى الأبد ". لذا فان وعي معظم الشباب الأوروبيين بتاريخ قارتهم المعذب يكون ضَحْلاً (سطحياً). وان تجاربهم المشكَّلة (المكوَّنة) كانت في أوروبا السلام والحرية والازدهار . بل وحتى الأوروبيين الشرقيين الأصغر سناً في دول مثل استونيا، التي لم تكن موجودة على معظم الخرائط قبل اثنين وعشرين عاماً فحسب، درجوا على اخذ هذه المنجزات التي تحققت بشق النفس على انه امرٌ مسلم به . في نطاق هذا المعنى، فان المشكلة الاعمق للمشروع الأوروبي هي مشكلة النجاح .

وعلى مدى العقد المنصرم، فان الشعوب الأوروبية ذات التعقيدات التاريخية بشأن كونها دُفعت الى اطراف أوروبا شعرت نفسها في انها تدخل أخيراً الى قلب أوروبا . إذ انضم الأوروبيون الشرقيون الى الاتحاد الأوروبي. واعتقد الأوروبيون الجنوبيون انهم كانوا يحققون ازدهاراً في منطقة اليورو . وفي اثينا ولشبونة ومدريد، كان ثمة شعور بالتساوي بين المجتمعات الأوروبية، مساواة جديدة وليست مجرد شكلية بين الامم.

الآن تحطم هذا الوهم . ففي اليونان، يقف المشردون صفاً من اجل صابون المطابخ، وينتحر المتقاعدون، ولا يستطيع المريض الحصول على وصفة طبية، واغلقت المحلات ابوابها، ويلتقط الكناسون من صناديق القمامة . وهي ظروف مذكرة باربعينيات القرن العشرين . وفي اسبانيا، فان كل شخص اثنين تحت سن الخمسة والعشرين يكون عاطلاً عن العمل، ويكون المعدل عبر منطقة اليورو واحد من أ ربعة تقريباً. بيد ان الا لم لم يتوزع بالتساوي ولم تجر الامور على ذات المنوال . ففي ألمانيا، تكون بطالة الشباب ما دون العشرة بالمئة . عليه، ثمة خط تقسيم جديد عبر أوروبا، ليس بين شرقها وغربها بل بين جنوبها وشمالها. الآن، وفي بحر السنوات القادمة على نحو محتمل، ستكون ثمة تجربة مختلفة جداً في ان تكون شاباً ألمانياً او شاباً اسبانياً أو بولندياً أو يونانياً.

وتعود بنا الذاكرة الى تاريخي العاشر من ايار /مايس(١٩٤٣و٢٠٠٣) في وارسو . فالشخص صاحب التجربة اليافعة المشكّلة برعب العام ١٩٤٣، لعل أزمة اليوم تُوقع في نفسه صدمة، ولكنها ما انفكت تكون نصف سوء ما قد تذكره وسيصر على وجوب الا ترجع أوروبا الى ذلك.

ولدى مراهقة العام ٢٠٠٣ رؤى ذهنية مختلفة، فهي تعتقد ان هذا مريع وليس ما قادها الى ان تتوقع ذلك.

لا بد من الإشارة الى ان الأوروبيين أمثال جيريميك وكول شهدوا أوروبا تقطع اوصا لها، وعليه كرسوا أنفسهم لبناء أوروبا أفضل. وان جيل الساخطين (indignados) في اسبانيا، المحتجين الشباب الذين احتشدوا عبر البلاد منذ ايار/مايو ٢٠١١ قد نشأوا في تلك الأوروبا الافضل والآن يتم تراجعهم الى الوراء. ان مسار اولئك الذين كانوا يبلغون من العمر خمسة عشر عاماً في العام ١٩٤٥ سار من الحرب الى السلام، ومن الفقر الى الازدهار، ومن الخوف الى الامل . اما مسار اولئك الذين كانوا يبلغون من العمر خمسة عشر عاماً في العام ٢٠٠٣، لا سيما في اجزاء القارة التي تعاني الآن أكثر فان المسار انحنى بالاتجاه المعاكس: من الازدهار الى البطالة، ومن تقارب التجارب القومية الى اختلافها، ومن الأمل الى الخوف.

فهل يستطيع هذا الاستياء ان يعطي الاساس النفسي لحملة شعبية لانقاذ أوروبا؟ الدلائل ليست واعدة. فالحركات الشعبية ظهرت خلال الازمة لكنها اشرت باتجاهات اخرى . كان أكبرها اتفاقية مكافحة التزوير التجاري[١] التي يرى فيها الكثير من الشباب الأوروبيين تهديداً لحرية التعبير على الانترنت . يحتشد الساخطون عبر جميع البلدان، النظراء الأوروبيون لحركة احتلوا وول ستريت، ضد المصرفيين والسياسيين واصحاب الطفرة الاقتصادية [٢]، الذين يرون فيهم سراقاً لمستقبلهم . ووجد استطلاع للرأي قائم على المقابلات مع ناشطين في هذه الحملات المختلفة، والتي نسقه ماري كالدور وسابين سيلكو من كلية لندن للاقتصاد ان الاتحاد الأوروبي اما غير مرئي بينهم أو يُنظر اليه سلبياً نوعاً ما.

لا ينبغي ان يُساء تقدير الخوف بوصفه قوة محركة في السياسة . فحينما صوت اليونانيون في انتخابات الإعادة في حزيران/يونيو(٢٠١٢) بشكل محدود جداً للاحزاب التي كانت جادة بابقاء البلد في منطقة اليورو، رسم رسام الكاريكاتير السويسري باتريك شابات (Patrick Chappatte) رجلاً

---

[١] مكافحة التزوير التجاري هو اتفاق بعيد المدى يهدف إلى مواءمة المعايير الدولية لحماية حقوق أولئك الذين ينتجون الموسيقى والأفلام والمواد الصيدلانية والأزياء، ومجموعة من المنتجات الأخرى التي كثيراً ما تقع ضحية لسرقة حقوق الملكية الفكرية .
وقع الاتحاد الأوروبي والدول الـ ٢٢ الأعضاء في اتفاق مكافحة التزوير التجاري (ACTA) على الاتفاقية يوم ٢٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٢. (المترجمة)

[٢] أبناء جيل الطفرة Baby Boom Generation: هو مصطلح يختص بالولايات المتحدة الأميركية إذ يشير إلى الطفرة الكبيرة التي حدثت في المواليد بعد الحرب العالمية الثانية إذ زاد عدد المواليد كثيراً لمدة سنوات عدة بعد الحرب . وأبناء هذا الجيل يفوقون في العدد من سبقهم ومن تليهم وهم الآن في سن فوق الستين وهو ما يشكل مشكلة في سوق العمل ومشكلة في الرعاية الصحية. (المترجمة)

ذا نظرة دالة على التعب واقفاً قبالة صندوق اقتراع في ظل قلعة اثينا هاتفاً "أنباء سارة! الخوف انتصر على اليأس". واستشهاداً بعبارة مشهورة للرئيس الأميركي فرانكلين رزوفلت، قد يقول المرء ان أوروبا اليوم ليس لديها ما تضع أملها فيه الا اليأس نفسه . ان الخوف من الانهيار، ومنطق الضرورة الشبيه بمنطق مونيت، وقدرة القصو ر الذاتي : هي ما قد تبقي المشروع الأوروبي على المسار، ولكنها ستخلف اتحاداً اوروبياً ينظر الى الخارج وديناميي يتمتع بدعم فاعل من مواطنيه . ودون بعض القوى المحركة الجديدة، ودون تعبئة إيجابية بين نخبه وشعوبه، قد يبقى الاتحاد الأوروبي قائماً بوصفه قصر اوريغامي [1] للمعاهدات والمؤسسات، وسينحدر تدريجياً في الفعالية والمغزى الحقيقي مثل الامبراطورية الرومانية المقدسة في الايام الخوالي. وقد يحدد المؤرخون المستقبليون عام ٢٠٠٥ بوصفه ذروة المسعى بعيد الاثر والبناء السلمي لتوحيد القارة والذي لم يشهده التاريخ قط.

[1] اوريغامي تعني باللغة اليابانية "فن الورق" وهو لعبة يابانية قديمة إذ تؤخذ ورقة مربعة الشكل وتطوى في اتجاهات مختلفة وبط ريقة فنية حتى تُصنع منها أشكال جميلة من مجسمات بأحجام وألوان متنوعة.
بدأ فن اوريغامي الذي يعرف بفن تشكيل الورق في القرن التاسع عندما دخل الورق إلى اليابان للمرة الأولى وصار يصنع منه ديكورات المراسم الدينية. (المترجمة)